

نظرة عامة على نشأة النصرانية

قبل البدء في الحديث عن عقائد النصارى وفرقهم وكتبهم والمنهج الذي سلكه ابن القيم رحمه الله في بيان تلك العقائد يجدر بنا أن نتعرف على أصحاب هذه الملّة وكيف كانت نشأتهم وأحوال البيئة التي عاشوا فيها منذ البداية كتمهيد لهذا الفصل من أجل أن يساعدنا ذلك على فهم عقائدهم وما يتعلق بحياتهم الدينية.

وسأقتصر في تمهيدي هذا على بيان نشأتهم وظروف بيئتهم دون التفصيل أو التوسع في تاريخهم حتى لا نخرج كثيراً عن صلب موضوعنا .. والله المستعان.

فإذا أردنا أن نتحدث عن النصرانية (المسيحية)[1] في نشأتها الصحيحة فلا نجد

---

(١) النصرانية (المسيحية): النصرانية: وتطلق على أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام رسول الله وكلمته وهو التعبير الأول الذي أطلق على أمته عليه السلام، نسبة إلى الناصرة التي نشأ فيها، أما المسيحية فإنها =

خبراً صادقاً عنها سوى القرآن الكريم، لما لعبته يد التحريف والمحو في روايات أحداث تاريخهم فاختلط الغث بالسمين والخطأ بالصحيح حتى لم يبق فيها صحيحاً إلا ما أخبر عنه القرآن الكريم وما تقره العقول السليمة والفطرة السمحة.

ومن المعلوم أن نشأة النصرانية ترجع تاريخياً إلى عيسى الناصري عليه السلام باعتباره المؤسس الأول لهذه الملة، علماً بأن عيسى عليه السلام بريء مما أدخله النصارى من بعده من عقائد وتشريعات ما أنزل الله بها من سلطان، حيث أرسله الله إلى بني إسرائيل برسالة الإسلام، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُواْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١]، إلا أن بني اسرائيل قبل مولد عيسى عليه السلام قد جرفهم تيار المادية والإلحاد وإنكار قدرة الله تعالى والابتعاد عن شريعة التوراة، لذلك كان مولده عليه السلام حدثاً تاريخياً عظيماً، وآية باهرة، وقد اقتضت كلمة الله تعالى أن يمهد لهذا الحدث لكي تتقبله النفوس بأمرين، الأول: نشأة أمه مريم عليها السلام، والثاني: ولادة يحيى عليه السلام، ولذلك سنلقي الضوء على هذين الأمرين لما لهما من شأن في المسيحية ونشأتها[1].

تسمية أطلقت عليهم لأول مرة في مدينة أنطاكية، وكان المسيحيون يومئذ كلهم من اليهود، وبعد صلبه قبل تلامذته في صفوفهم تدريجياً جميع من آمن بأن يسوع هو المسيح المنتظر بغض النظر عن عنصرهم أو لغتهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، ياقوت الحموي «معجم البلدان» (٥/ ٢١٥)، وحربي، د.محمد «ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره» (ص٤٠٥)، والشهرستاني «الملل والنحل» (١/ ٢٦٢)، و(قاموس الكتاب المقدس) والتهانوي «كشاف اصطلاحات الفنون» (٢/ ١٧٠٠).

(١) اعتمدت في بيان نشأة يحيى ومريم عليهما السلام على الكتب التالية:

١- أبو زهرة، محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص١٤-١٥) ٢-شلبي د . أحمد «مقارنة الأديان- المسيحية» (ص٣٤-ص٣٧) ٣- المفتي، محمّد مختار وأبو الريش، د.موسى «إظهار الحق في الأديان والفرق» (ص٥٧-٦٣)، ٤- البيشاوي، سعيد «دراسات في الأديان والفرق» (ص٦٠-٦٥)، ٥- مسعود، د.جمال =

أولاً : مريم ابنة عمران :

عمران أحد عظماء بني إسرائيل وكانت زوجته عاقراً تأمل أن تكون أماً، فاتجهت إلى الله بالدعاء ونذرت إن حقق الله رجاءها أن تترك وليدها للهيكل خادماً، فاستجاب الله دعاءها وولدت مريم بعد وفاة زوجها عمران (والد مريم)، فنفذت نذرها، وتنازع سدنة البيت أيهم يكفل مريم، فاقترعوا فيما بينهم فكانت القرعة لزكريا عليه السلام فكفلها وعني بها وكان زوج خالتها ولم يكن له أولاد، وقد احتار زكريا في الأرزاق التي يجدها عند مريم فسألها أنى لك هذا؟ قالت هو من عندالله، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَمَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٥-٣٧].

ثانياً : يحيى بن زكريا عليهما السلام :

فقد كان زكريا عليه السلام وهو أحد أنبياء بني إسرائيل يتمنى أن يرزقه الله ولداً يواصل دعوته من بعده خوفاً على قومه أن يضلوا إلا أن تأخر سِنه وعُقْمَ زوجته قطع الأمل لديه، فتذكر قدرة الله سبحانه عندما دخل على مريم ووجد عندها ذلك الرزق وحينها دعا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

عبدالهادي وجمعة، د . وفاء محمد «أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ - ذرية إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى» (ص٢٤٩-٢٨٩) بتصرف

الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداًوَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٨-٣٩]، فكان يحيى عليه السلام نبياً إلى بني إسرائيل فهم التوراة وأحاط بأصولها وفروعها، ومن أهم ما اشتهر به أنه كان يغسل الناس في نهر الأردن تطهيراً لهم من الذنوب والخطايا وقد عرف هذا الغسل بالتعميد ولذلك سمي عند اليهود بيوحنا المعمدان، وقد عمد المسيح الذي كان قريباً من عمره.

وكان يحيى جريئاً في قول الحق حيث نقلوا إليه أن هيرودوس ملك اليهود بفلسطين قد وقع في حب إبنة أخيه وأنه ينوي الزواج بها، فأعلن يحيى عليه السلام أن ذلك يناقض التوراة، وأنه إن حصل فهو زواج باطل، وعندما تزوجها عمها طلب منها أن تتمنى ما تريد، فتمنت رأس يحيى عليه السلام فكان ذلك، حيث جيء برأسه عليه السلام في طبق أمامها، وفي بعض الروايات أن هذا الملك تزوج من بنت أخيه وزوجها حي فندد يحيى عليه السلام بهذه الخطيئة فكان عقابه ما سبق. ويقال أن زكريا والد يحيى عليه السلام مات في هذه الفتنة، وقد بدأ المسيح دعوته بعد موت يحيى عليه السلام.

وبعد أن تحدثنا عن هذه الشخصيات الهامة والتي مهدنا بها للكلام عن المسيح عيسى عليه السلام، نصل الآن للحديث عنه عليه السلام باعتباره الشخصية الأولى في تاريخ النصارى.

ولادة عيسى ورسالته إلى بني إسرائيل:

بقيت مريم في الاعتكاف كعادتها إلى أن أرسل الله لها جبريل عليه السلام ليخبرها بأنها ستلد غلاماً زكياً آية للناس قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً *

قَالَ كَذلِكِ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾ [مريم:١٦-٢١]، وتقبلت السيدة البتول أمر ربها وبدأ حملها وكثرت أفكارها وتزاحمت أوهامها فخرجت من بيت المقدس إلى الناصرة[١] معتزلة الناس، فلما اقترب موعد وضعها ارتحلت إلى بيت لحم[٢] حيث وضعت وليدها السيد المسيح قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً * وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً * ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

---

(١) الناصرة: هي الآن مدينة في الجليل، الجزء الشمالي من فلسطين وتقع على جبل مرتفع، بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً، ومنها اشتق اسم النصارى «ياقوت الحموي-معجم البلدان» (٥/ ٢٥١)، و«قاموس الكتاب المقدس» (ص٩٤٦)

(٢) بيت لحم: هي الآن مدينة من مدن فلسطين، وتبعد (٦أميال) عن القدس من جهة الجنوب، وتلفظ أيضا كما ذكر ياقوت الحموي (بيت لحم) قيل إن هذا الإسم عبري ومعناه بيت الخبز، فيها كنيسة المهد، وفيها مسجد عمر بن الخطاب ﷺ، ويقال إن فيها قبر داود وسليمان عليهما السلام، ياقوت الحموي، «معجم البلدان» (١/ ٥٢١)، و«قاموس الكتاب المقدس» (ص٣٠٥)

مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم:٢٢-٣٧].

وعلى الرغم من أن ميلاده كان معجزة إلا أن اليهود بقوا على ما هم عليه من الكبر والعناد والتسلط ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أمرين كما يقول الأستاذ محمّد أبو زهرة[1] ننقلها بتصرف:

الأول: طبيعة اليهود المادية حيث ذكرنا فيما سبق أنهم كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل وخاصة الرهبان الذين كانوا إلى جانب جشعهم يفرضون الضرائب ليزدادوا ثراء بغير وجه حسن، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [التوبة:٣٤] **فكان همهم الأكبر** هو جمع المال.. فتعمقوا في المادة وابتعدوا عن الروحية فانغمس الكثير منهم في متاع الحياة الدنيا حتى فسدت عقيدتهم.

الثاني: الاستبداد الديني أو الأرستقراطية الدينية: فأمر الحاخام مقدم على أمر الرب حتى بلغ الأمر أنه إذا قال الحاخام لأحدهم عن يده اليمنى بأنها اليسرى لاقتنع بذلك دون جدال، كذلك فقد ربطوا الغفران برضا الرهبان ودعائهم حيث اعتبر الأحبار بأنهم الصلة بين الله والناس فندد المسيح عليه السلام بهذا وأخذ يحارب هذه الاتجاهات المتأصلة عند اليهود داعياً الى التسوية بين العباد، وإلى إفراد الله بالعبودية، كما أنه عليه السلام بشر بنبوة محمد ﷺ نبياً من العرب يأتي من بعده ولهذه الأمور مجتمعة وقف اليهود في وجه دعوته وناصبوه العداء فلم يؤمن به إلا القليل.

يذكر الدكتور شلبي[2] عن اليهود أنهم لما رأوا بعض الضعفاء اتبعوا عيسى عليه السلام وأن دعوته تتجه ضد الكهنة، خافوا أن تنتشر مبادئه فأغروا به الحاكم

---

(١) أبو زهرة، محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص٢٢).

(٢) شلبي، د. أحمد (مقارنة الأديان - المسيحية) (ص٤٧).

الرومـاني، ولكـن الرومـانيين كـانوا وثنيـين ولم يكونـوا علـى اسـتعداد للدخـول في الخلافات الدينية بين اليهود، ولم تكن دعوة المسـيح الـتي أعلنهـا إلا إصلاحـاً خلقيـاً ودينياً فلم تتصل دعوته بالسياسة ولم تمس الحكومة من قريب أو من بعيد، ولذلـك لم يستحق غضب الرومان، ولكن اليهود تتبعوا عيسى لعلهم يجدون منه سقطة تثير عليه غضب الرومان، فلما لم يجدوا، تقولوا عليه وكذبوا، فأغضبوا الحاكم الرومـاني علـى عيسى، فأصدر أمره بالقبض عليه وحكم عليه بالإعدام صلباً. ولكـن الله تعـالى نجـاه منهم وألقى شبهه على غيره قيل أنه يهودا الإسخريوطي، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٥٧] وقد وقع خلاف بين علماء المسـلمين في كيفيـة رفع عيسى عليه السلام بعد النجاة من الصلـب والقتـل، هـل رفـع إلى السـماء حياً بجسمه وروحه، أم أنه استوفى أجله على الأرض وهو مختف ثم مات حيث شـاء الله ورفعت روحه الى بارئها، ولكل من أصحـاب هذيـن الرأيـين أدلتـه الـتي يحتـج بهـا، وحيث أن هذه القضية الخلافية ليس لها علاقة قوية بموضوعنا هنا فإنني أكتفي بإحالـة القارىء إلى كتاب المستشار محمد عزت طهطاوي «النصرانية والإسـلام» (ص١٠٢)، وما بعدها وكذلك كتاب الدكتور أحمد شلبي «مقارنة الأديـان - المسـيحية» (ص٤٩) وما بعدها، وذلك للوقوف على الرأيين ومعرفة أدلة كل فريق.

رسالته عليه السلام وبيئته التي نشأ فيها:

جاءت رسالة عيسى عليه السلام بدعوة بني إسرائيل لعبـادة الله وحـده لا شـريك له، قال تعالى: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكـم إنـه مـن يشـرك بـالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة:٧٢] وقـال تعالى ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُـمْ﴾ [المـائدة:١١٧] إلا أن قومه كفروا به وأشركوا وانحرفوا وما آمن معه إلا قليل، ثـم إن هـذه البيئـة اليهوديـة التي عاش ونشأ فيها المسيح عليه السلام قد تأثرت بما حولها من بيئات، كان لهـا أثـراً كبيراً على المسيحية فيما بعد، وهنا يذكر الدكتور الحاج في كتابه مـا وصفـه (جيمـس

هاستنكز)[1] عن البيئة اليهودية فيقول: «إن هذا المجتمع بدأ يتفلت من تطبيق القوانين والتشريعات التي جاءت بها التوراة، وإن طقوس المعبد قد قوطعت بواسطة الوثنيين غير اليهود المسيطرين، وإن المدينة المقدسة قد وقعت تحت حكم الأجنبي، وانقطع الإحساس بالانتماء إلى (يهوه)»[2].

وقد تأثر اليهود أيضاً كما يذكر (جيني بير)[3] بوفود الحجيج القادمة إلى القدس على كثرة عددها في المواسم والأعياد من أبناء الجالية اليونانية، مما أدى إلى تشرب بني إسرائيل بالكثير من الأفكار الخارجية خلال القرون الثلاثة السابقة للتاريخ المسيحي، يذكر أيضاً أن اليهود في فلسطين كانوا على قسمين مختلفين فكرياً وعقائدياً وذلك بسبب السبي البابلي حيث ظهر فرق واضح بين أهل الريف الذين بقوا على دين إسرائيل القديم وبين أهل المهجر الذين تطوروا بسرعة وجلبوا معهم روحاً جديدة ، ويتابع (جيني بير) ذاكراً أن دعوة المسيح قد ظهرت في الجليل - الجزء الشمالي من أرض فلسطين- وكان شعب هذا الجزء ينتظر المخلص الذي سيخلصهم من ظلم الرومان.

ولقد أصبحت فكرة المسيح المخلص هذه التي هي في أصلها كما يقول (جيني بير)[4] لها أثر بارز في انتشار دعوة المسيح عليه السلام بين أوساط اليهود وهنا يذكر (د. شلبي)[5] أن اليهود أحيانا يطلقونها على من يعاقب أعداءهم وإن لم يكن من نسل داود كما أطلقها إشعيا على (قورش).

---

(١) جيمس هاستنكز هو صاحب دائرة المعارف اليهودية Encyclopaedia of religion and Ethics /James Hastings.

(٢) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص٣٦).

(٣) جيني بير، شارل «المسيحية نشأتها وتطورها» (ص٣٠-ص٣٧) بتصرف من ترجمة د. عبد الحليم محمود.

(٤) نفس المرجع (ص٦٢)

(٥) شلبي د. أحمد «مقارنة الأديان - اليهودية» (ص٢٢٠).

بنو إسرائيل بعد المسيح عليه السلام:

المسيح عليه السلام ولد يهودياً وعاش في بيئة يهودية وبدأ دعوته بينهم في فلسطين بإقليم الجليل، فالنصرانية امتداد لليهودية، فرسالة عيسى عليه السلام كانت خاصة الى بني إسرائيل و لم تخرج عن نطاق شريعة موسى عليه السلام، لكننا إذا ما نظرنا اليوم إلى اليهود فإنهم لا يقبلون غير اليهودي في ديانتهم لأنها في نظرهم ديانة قومية، والإله إلههم فقط، أما النصرانية أو المسيحية -بالتعبير الآخر- فقد استقلت بنفسها وانتشرت في شتى البقاع، فكيف خرجت عن اليهودية وهي كما نعلم امتداد لها، والحقيقة أن هذا الخروج وهذا الانفصال لم يحدث في زمن المسيح عليه السلام وإنما جاء متأخراً وفي هذا ينقل كلا من (د. شلبي) و(د. الحاج)[1] عن إنجيل متى أن المسيح عندما أرسل تلاميذه للتبشير بدعوته أمرهم أن يقتصروا في دعوتهم على مدن اليهود هؤلاء الإثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً: «لا تقصدوا أرضاً وثنية ولا تدخلوا مدينة سامرية بل اذهبوا إلى الخراف الضالة من بني إسرائيل»[2].

ويذكر (د. الحاج)[3] أن الافتراق والخروج عن الإقليمية اليهودية بدأ به بطرس وبولس حيث ينقل عن سفر أعمال الرسل رؤيا بطرس التي رأى على أثرها أن يقبل المهتدين من الوثنيين واليهود على السواء «فتح بطرس فاه وقال: بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه، بل في كل أمة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده... فبينما بطرس يتكلم بهذه الأمور حل الروح من القدس على جميع الذين كانوا يسمعون الكلمة فاندهش المؤمنون الذين من أهل الختان -كل من جاء مع بطرس- لأن موهبة الروح القدس قد انكبت على الأمم أيضاً»[4].

---

(١) د. شلبي، د. أحمد «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص٦٤)، الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص٤٥).

(٢) الإنجيل، متى (١٠/ ٥-٦).

(٣) الحاج، محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص٤٦).

(٤) أعمال الرسل (١٠/ ٣٤-٣٥، ٤٤-٤٥).

أما بولس فيذكر سفر الأعمال جولاتــه على المـدن وتبشـيره اليونـانيين وغـيرهم بالمسيحية الجديدة التي جاء بها حيث نقل المسيحية من كونها دين خاص، بــاليهود إلى دين عالمي[1].

بولس وأثره في النصرانية:

كان لبولس[2] اليهودي الأصــل، الأثـر الأكـبر في إحـداث الإنقـلاب الشـامل في

(١) شلبي، د. أحمد « مقارنة الأديان - المسيحية» (ص٦٥)، والطهطاوي، محمّد عزت « النصرانية والإسلام» (ص٢٥٩)، والحاج د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص٤٧).

(٢) بولس: واسمه العبري (شاؤول) قال عن نفســه: «أنـا يهـودي فريسـي ابـن فريسـي علـى رجـاء قيامـة الأموات» -الأعمال (٢٣/ ٦)- ولد في طرسوس بآسيا الصغرى حوالي السنة العاشرة الميلاديــة وكـانت طرسوس حافلةً بالتأثيرات اليونانية في الأفكار والعقائد والدراسات الفلسفية حتى تـأثر بولـس بهـا ثـم تأثر بالبيئة الثانية التي عاش فيها وهي القدس في المدارس اليهودية وقد تحول بولس فجأة من اليهودية إلى النصرانية على الرغم من عدائه الشديد لعيسى عليه الســلام وأتباعـه فهـو شـديد البغـض لهـم يؤذيهـم ويعذبهم ويحاربهم في كل مكان حتى أنه كان يسوقهم موثقين رجالاً ونســاءً مـن الطـرق إلى أورشـليم، وقد زعم مرة أنه بينما كان سائراً إلى دمشق أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول!! لماذا تضطهدني؟ فقال: من أنت؟ فقال: الرب أنا يسوع الذي تضطهده، فآمن شاؤول بألوهية المسيح وغير اسمه ليصبح بولس والحقيقة أن بولس عندما عجز عن محاربة المسيحية بالاضطهــاد قرر أن يلجأ إلى التدمير الداخلي فافتعل هذه القصة الخرافية ليجعل منها وسيلة مناسبة عنـد المسـيحيين، وقد استطاع بهذه القصة أن يدعي الرسالة العالمية، ويعمم أفكاره اللاهوتية الجديدة، وقصة إيمان بولــس موجودة في سفر أعمال الرسل (٩/ ١-٣٠، و٢٢/ ١-١٦،٦٦/ ١٢-١٨).

وقد بدأ بولس بكتابة رسائله الكثيرة إلى المدن يدعو الناس للدين الجديد، ولعل أبرز ما ساعده في تعميـم فكرته واقتناع الجماهير بها سواء اليونان أو الرومان أو غيرهم أنه كان يمزج في رسائله إلى المــدن الوثنيـة والرومانية والفلسفة اليونانية بالعقائد الدينية الجديدة لتناسب ما ألفه الوثنيون في الإمبراطورية الرومانية، فلما رأى الروم لا يختتنون حرم الختان، ولما رآهم يأكلون الخنزير وسائر المحرمات أباحهم لهم، ولما رآهـم يقولون بتعدد الآلهة وبنبوة أحدها لله قال بألوهية المسيح ونبوته لله، وبهذا عمل على تقريب النصرانية إلى الوثنية الرومانية مع المزج بالفلسفة اليونانية، وقد سجن بولس في سجن رومية وأعدم ضرباً بالسـيف خارج روما بثلاثة أميال سنة (٦٧ أو ٦٨م)، وجميع فرق النصارى يعدونه رسول الأمم العظيم والقديس الأول وأنه أول تلاميذ المسيح ورئيسهم، وأنه رأس الكنيسة المنظور والباباوات خلفـاؤه، فهـو وإن لم يـر =

النصرانية حيث نقلها من عقيدتها الإسلامية الصحيحة التي جاء بها عيسى عليه السلام إلى المسيحية المعروفة اليوم بشركها، ولهذا فإن بولس يعتبر المؤسس الحقيقي للمسيحية المعاصرة.

ثم إن عداوة بولس للمسيحية هي التي دفعته للتظاهر بالدخول فيها، ليستمر في حربها بسلاح جديد، سلاح التهديم الداخلي، بإفساد معالمها، فلقد أحدث بولس في المسيحية أحداثاً خطيرة بحيث يمكن القول بأنه طمس تعاليم الدين الحقيقي الإسلامي الذي جاء به عيسى عليه السلام، وخلق ديناً جديداً وضع عليه كلمة المسيحية وقد كانت أهم معالم المسيحية الجديدة ما ذكره لنا على شكل نقاط المستشار محمّد عزت طهطاوي[1] كما يلي:

أ- نقلها من ديانة خاصة إلى بني إسرائيل إلى ديانة عالمية.

ب- نقلها من التوحيد إلى التثليث.

جـ- قال بألوهية المسيح.

د- اخترع قصة الفداء للتكفير عن خطيئة البشر.

هـ- ألغى المعالم الهامة التي نادى بها عيسى نفسه كالختان وعدم أكل لحم الخنزير.

و- أهمل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود وجعل عطلة الأسبوع يوم الأحد.

المسيح إطلاقاً لكنه عندهم حواري باعتبار الصحبة الروحانية وأن رسائله لها من القداسة كما للإنجيل بل أزيد حيث يعتبرون أنها كتبت بالإلهام «قاموس الكتاب المقدس» (ص١٩٦)، وغربال محمّد شفيق «الموسوعة العربية الميسرة» (ص٤٤٠)، وشلبي، د. أحمد «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص٨٢+ ص٩٨)، والحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص١٤٢-١٤٥)، وملكاوي د. محمّد أحمد من كلامه على هامش (ص٢٢٤ و٢٢٥) من كتاب «إظهار الحق» لرحمة الله الهندي - الجزء الأول، والطهطاوي، محمّد عزت «النصرانية والإسلام» (ص٢٤٣) وما بعدها.

(١) طهطاوي، محمّد عزت «النصرانية والإسلام» (ص٢٥٩).

ومما يبعث على الدهشة والاستغراب أن بولس استطاع أن يحتل هذه المكانة في المسيحية ويصبح قديساً يغير ويبدل كيفما شاء رغم أنه ليس من تلاميذ المسيح أو حوارييه، وينقل الدكتور الحاج[1] ما قاله ويلز في كتابه (مختصر تاريخ العالم): «كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المسيحية الحديثة وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس، أوتي عقلية عظيمة وكان شديد الإهتمام بحركات زمانه الدينية فنقل إلى المسيحية كثيراً من الأفكار».

ولم يتوقف اليهود عند هذا الحد من التخريب والتحريف، لا سيما وأنهم وجدوا تربة خصبة في الأرض الوثنية الرومانية بل مزقوا المسيحية إلى فرق متعددة ومختلفة، وأصبح رؤساء هذه الفرق قادة دينيين ورجال سياسة في نفس الوقت.

وإلى جانب ما فعله بولس من أثر وثني في النصرانية فإن الاضطهادات الواقعة على النصارى كان لها أثر واضح في سهولة تحريف كتبها فقد اعتذر بعض علماء النصارى عن الإضطرابات في الأناجيل كونها دونت في عصور اضطهاد المسيحية الأولى وقد نقل الإمام محمّد أبو زهرة[2] عن رحمة الله الهندي قوله: «لقد طلبنا مراراً من علمائهم

(١) الحاج، د. محمّد أحمد، «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص١٤٨).

(٢) أبو زهرة، محمّد، «محاضرات في النصرانية» (ص٣١).

* وهذه الفرق الثلاث هي: أ- الكاثوليك: وكنيستهم تسمى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية ومعنى الكاثوليكية أي العامة لأنها تدعي أم الكنائس التي تنشر المسيحية في العالم، وسميت غربية أو لاتينية لامتداد نفوذها إلى الغرب مثل إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وسميت البطرسية أو الرسولية لاعتقادهم أن بطرس الرسول هو مؤسسها الأول والبابوات في روما خلفاؤه، وهذه الكنيسة تتبع النظام البابوي فالبابا هو تلميذ المسيح الأكبر على الأرض وهو ممثل الله لذلك إرادته لا تقبل الجدل أو المناقشة.

ب- الأرثوذكس: وتسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليونانية لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية كروسيا والبلقان واليونان، وقد كان مقرها الأصلي القسطنطينية وقد فصلت عن الكنيسة الكاثوليكية أيام ميخائيل كارولايوس بطريرك القسطنطينية سنة (١٠٥٤) لأسباب دينية وسياسية.

=

الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين في محفل المناظرة التي كانت بيني وبينهم فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى مدة ثلاثمائة وثلاث عشرة سنة».

ظهور الكنيسة:

وعلى أية حال فإن المسيحيين لما قويت شوكتهم في القرن الرابع خاف الأباطرة على جمهوريتهم أن تنهار فأعفوا القساوسة من الضرائب، وبنوا لهم الكنائس، وتركوا للكنيسة شئونها القضائية وأصبح لكل كنيسة رجل دين، ويذكر الدكتور الحاج في كتابه أن نظام الكنيسة وسلطة رجل الدين قد بدا واضحاً في القرن الرابع، حيث عد بابا روما رئيساً للكنائس كلها وقد أصبح للبابوات نفوذ ضخم مع تدهور الإمبراطورية في الغرب... ويتابع بأن الكنائس افترقت تبعاً لافتراق النصارى ولكل فرقة من الفرق الثلاث المعروفة اليوم كنيسة تعتبر أمّاً للكنائس المنتشرة في العالم، وتعتبر الكنيسة الكاثوليكية هي أكبر كنيسة في العالم وهي ذات التاريخ الطويل في الدين والسياسة، وهي التي حملت لواء الحرب الصليبية وحاملة لواء محاكم التفتيش[1].

كما أنه أصبح في يد الكنيسة السلطان السياسي والسلطان الديني، فأصبح البابا له السيادة العليا في القضاء والإدارة والتشريع، بل إنه مالك مفتاح الرحمة وباب السماء حتى اعتبر رجال الكنيسة أنفسهم أنهم ممثلين لله فهم أبواب الرحمة أو الحرمان[2]

ج- البروتستانت: وتسمى كنيستهم الكنيسة الإنجيلية لأن أتباعها يتبعون الإنجيل ويفهمونه بأنفسهم ولا يخضعون لفهم سواهم فهم يعارضون الكنائس الأخرى التي تعتبر فهم الإنجيل وقفاً على رجال الكنيسة وينتشر أتباع هذه الكنيسة في أمريكا الشمالية وإنجلترا وألمانيا وسويسرا والنرويج وهولندا والدانمرك. شلبي، د. أحمد مقارنة الأديان - المسيحية (ص١٩٩-٢٠٢).

(١) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص١٦٥).

(٢) شلبي، د. أحمد «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص٨٦).

وهكذا أصبح للكنيسة ورجالها أثر كبير في الإنحـراف والتحريـف والتغيـير والتبديـل حتى أنهم صاروا يعقدون الإجتماعات لإقرار الإنحراف فظهرت المجامع.

المجامع:

وهذه المجامع كانت تعقد من أجل مناقشة قضية معينة كثر فيها الجدل وانبثـق عنهـا الخلاف بين رجال الكنيسة، ويعرف الدكتور شلبي المجامع على أنها هيئات شـورية في الكنيسة المسيحية رسم الرسل نظامها في حياتهم إذ عقدوا المجمـع الأول في أورشـليم سـنة (١٠٥م) برئاسـة الأسـقف «يعقـوب الرسـول» للنظـر في ختـان الأممـي (غـير اليهودي)[١].

والمجامع قسمان: مجامع مسكونية (أي عالمية مسكونية نسـبة إلى الأرض المسـكونة) ومجامع محلية أو مكانية، وقد عقدت المجامع المسكونية عـدة مـرات في القـرون الأولى، وشهدها ممثلو الكنائس من جميع الأقطار، وقد علل الدكتور شلبي سبب عقدها ظهور المذاهب الدينية الغريبة التي ينبغي فحصها وإصدار قرارات بشأنها[٢]، ويعلل الدكتور الحاج سبب عقد هذه المجامع ظهور الصراع والخلاف حول ركن الألوهيـة والتوحيـد فمنهم من يقر بإلهية المسيح ومنهم من ينكرها[٣].

وقد عقد من المجامع المسكونية عشرون مجمعاً، كان أولها مجمع نيقية سـنة (٣٢٥م)، وآخرها بالفاتيكان سنة (١٨٦٩م) وقد كان من أهـم هـذه المجـامع مجمـع نيقيـة سـنة (٣٢٥م) ومجمع القسطنطينية الأول سـنة (٣٨١م) حيـث تم إقـرار العقـائد الرئيسـية للمسيحية والتي تلتقي حولها جميع الفرق والمذاهب (ألوهيـة المسـيح وألوهيـة الـروح القدس، وعقيدة التثليث) وقد أصبحت لهذه المجامع سلطة قوية بحيث تعتـبر قراراتهـا

---

(١) شلبي، د. أحمد «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص١٦٦).

(٢) شلبي، د. أحمد، «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص١٦٦).

(٣) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص١٦٦).

أصولاً في الدين المسيحي، فبالإضافة إلى العقائد الشركية الفاسدة التي أقرتها فقد أقرت عصمة البابا ومنحت الكنيسة سلطة محو السيئات، وقد أصدر مجمع روما سنة (١٨٦٩م) قراراً يقضي بعصمة البابا فيكون هو صاحب حق التشريع باعتباره رأس الكنيسة، وهكذا باشرت الكنيسة سلطاتها التشريعية ولا تزال تباشرها ومن أهم قراراتها في العصر الحاضر وبالتحديد في الخمسينات تبرئة اليهود من دم المسيح، حيث نقل الدكتور الحاج في كتابه[1] بعض ما جاء في التقرير السنوي الذي قدمته الجمعية الأمريكية اليهودية سنة (١٩٥٢م) وأورد من ذلك «إن الإنتصارات التي حققناها في السنوات الماضية من سنة (١٩٥٠م) أزالت كل إشارة معادية في الكتب الدينية المسيحية وكتب التدريس لا سيما فيما يتعلق منها بقضية الصلب، فبفضل جهودنا أصبح (٥٨)٪ من الكتب البروتستانتية خالية اليوم من العبارات العدائية المحقرة لليهود، وقد توصلنا إلى نتائج مماثلة في الكنائس الكاثوليكية إلا أن ذلك كان على نطاق أضيق».

ونحن لا يهمنا أن يبرأ اليهود من دم المسيح أو لا يبرؤوا لأنهم لم يصلبوه ولم يقتلوه ولكن شبه لهم والله سبحانه وتعالى نجاه منهم لأنهم حاولوا بالفعل قتله والذي يهمنا في نهاية حديثنا عن نشأة النصارى أن نقول أن اليهود نجحوا بما زرعوا داخل النصرانية من رجالاتهم أمثال بولس وغيره حتى عصرنا الحاضر فهم معاول الهدم الأولى والمستمرة في النصرانية من نشأتها حتى يومنا.

(١) نفس المرجع، (ص١٥٦).

المبحث الأول

أصول عقيدة النصارى

ويشتمل على ثلاث مطالب:

المطلب الأول

نقد ابن القيم لعقيدة الإله عند النصارى

لا شك أن العقيدة الأساسية للنصارى كانت الإيمان بـا لله الواحـد الأحـد الفـرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهذه هي العقيـدة الـتي جـاء بهـا عيسى عليه السلام وجميع الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِـن قَبْلِـكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

إلا أن النصارى لم يستقروا على عبادة الله وحده فتـأثروا بـالوثنيين وتقليـد الأمـم الوثنية المجاورة والأهم من ذلك ما لعبه اليهود وعلى رأسهم بولس من دور خطير في إبعاد النصارى عن مسار الدين الصحيـح مـن التوحيـد إلى التثليـث والشـرك بـا لله سبحانه وتعالى، ولقد ذهبت المسيحية في قضية الاعتقـاد بـا لله مذهبـاً خطـيراً حينمـا زعموا أن المسيح ابن الله وهم ما زالوا يعتقدون بهذه العقيدة حتّى اليوم، قال تعـالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾ [التوبة:٣٠] وهذا الاعتقاد جعل كثيراً من العلماء والمفكرين يهتمون بها نظراً لأنها من أخطر القضايا التي تمـس صلـب العقيـدة، وابـن القيم رحمه الله تناول هذه القضية مبينـاً ضـلال المعتقديـن بهـا ومدافعـاً عـن عقيـدة التوحيد.

ثم إن ابن القيم رحمه الله في نقده لعقيدة النصارى في الإلـه قـد سـار وفـق المنهـج النقلي والعقلي حيث بين فساد استدلالهم على عقيدتهم الباطلة، وبرهن على كلامـه بحجج نقلية من القرآن الكريم وكذلك من أناجيلهم، ثم إنه بين من خلال نقده هـذه

العقيدة صفات الله سبحانه وتعالى التي اتفقت عليها جميع الرسالات السماوية، وبين كذلك أن الإنحراف في هذه العقيدة قد ثبت وأقِر في مجمع نيقية، ثم ما تبعه من مجامع أقرت أمور كثيرة مخالفة للعقيدة الصحيحة وهي في ذاتها غير مستقرة على عقيدة واحدة في الإله، والنصارى على كثرة مجامعهم لم يستطيعوا أن يفهموا دينهم، وسيأتي في سياق البحث الحديث عن جملة من المجامع، ومن الملاحظ أن عقائد النصارى كلها عقائد متشابكة ومتداخلة الأمر الذي يجعل الحديث عنها جميعها مكملاً لبعضها البعض وسأتحدث عن منهج ابن القيم في عرضها ونقدها والرد عليها مبتدئاً من النقطة التي تغير فيها دين المسيح عليه السلام من الصلاح إلى الفساد وما تلا ذلك من عقد المجامع التي قلبت أصول العقيدة الصحيحة وغيرت بالكلية الدين السليم الذي جاء به عيسى عليه السلام. يقول ابن القيم عليه رحمه الله: «ولما أخذ دين المسيح عليه السلام في التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعاً، ثم يتفرقون على الاختلاف والتلاعن يلعن بعضهم بعضاً، حتى قال فيهم بعض العقلاء[1]: «لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون في حقيقة ما هم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً» حتى جمعهم قسطنطين (الملك) من سائر الأقطار فكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر قائلاً لهم: أنتم اليوم علماء النصرانية وأكابر النصارى فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية، ومن خالفها لعنتموه، وحرمتموه، فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا واتفقوا على وضع الأمانة التي بأيديهم اليوم وكان ذلك بمدينة نيقية[2] سنة خمس عشرة من ملك قسطنطين»[3].

---

(١) لم يصرح ابن القيم رحمه الله بأسماء هؤلاء العقلاء، وقد مر بنا سابقاً نقل ابن القيم عن غيره من العلماء دون أن يصرح بأسمائهم وهذا من منهجه رحمه الله علماً بأن هذه العبارة أوردها ابن تيمية عن بعض العقلاء دون أن يصرح بهم وقد يكون ابن القيم قد أخذها عن ابن تيمية كما هي في «الجواب الصحيح» (٣/ ١٦٤). ولأن من منهج ابن القيم أن يأخذ عن ابن تيمية.

(٢) مدينة نيقية: وهي من أعمال اسطنبول بآسيا الصغرى وفيها اجتمع آباء الملة المسيحية وعرف اجتماعهم هذا (بمجمع نيقية) وكان سنة (٣٢٥م)، البلاذري، «معجم البلدان».

(٣) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥١).

والحقيقة أن سبب انعقاد هذا المجمع هو اختلاف النصارى في الإله، وقد ذكر ابن القيم هذا السبب قائلاً: «وكان أحد أسباب ذلك أن بطريق الإسكندرية منع آريوس[1] من دخول الكنيسة ولعنه فخرج آريوس إلى قسطنطين الملك مستعدياً عليه، ومعه أسقفان فشكوه إليه، وطلبوا مناظرته بين يدي الملك فاستحضره الملك، وقال لآريوس: اشرح مقالتك، فقال آريوس: أقول: إن الأب كان إذا لم يكن الإبن، ثم أحدث الإبن، فكان كلمة له، إلا أنه محدث مخلوق، ثم فرض الأمر إلى ذلك الإبن المسمى كلمة، فكان هو خالق السموات والأرض وما بينهما كما قال في إنجيله، إذ يقول: «وهب لي سلطاناً على السماء والأرض» فكان هو الخالق لهما بما أعطى من ذلك، ثم إن تلك الكلمة تجسدت من مريم العذراء ومن روح القدس، فصار ذلك مسيحياً واحداً، فالمسيح الآن معنيان: كلمة، وجسد، إلا أنهما جميعاً مخلوقان. فقال بطريق الإسكندرية: أخبرنا أيما أوجب علينا عندك؟ عبادة من خلقنا، أو عبادة من لم يخلقنا؟ فقال أريوس: بل عبادة من خلقنا.

فقال له البطريق: فإن كان خالقنا الإبن -كما وضعت- وكان الإبن مخلوقاً، فعبادة الإبن الذي خلقنا -وهو مخلوق- أوجب من عبادة الأب الذي ليس بخالق، بل تصير عبادة الأب الذي خلق الإبن كفراً، وعبادة الابن المخلوق إيماناً، وذلك من أقبح الأقاويل، فاستحسن الملك وكل من حضر مقالة البطريق، وأمرهم الملك أن يلعنوا آريوس وكل من يقول مقالته، فلما انتصر البطريق قال الملك: استحضر البطارقة والأساقفة حتى يكون لنا مجمع نضع فيه قضية؛ نكفر آريوس ونشرح الدين ونوضحه للناس، فبعث قسطنطين (الملك) إلى جميع البلدان فجمع البطارقة والأساقفة واجتمع في مدينة نيقية بعد سنة وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً، فكانوا مختلفي الآراء

---

(1) آريوس: تنسب إليه الآريوسية الذين قالوا أن عيسى عليه السلام عبد الله. كسائر الرسل والأنبياء وهو مربوب مخلوق مصنوع، ولد آريوس في ليبيا سنة (٢٧٠م) دخل في المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، ثم أصبح قسيساً وقد كان ذكياً فصيحاً. ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٦) من كلام المحقق. د. محمّد الحاج في الهامش.

مختلفي الأديان، فأمرهم الملك أن يتناظروا حتى يعلم الدين الصحيح، فطالت المناظرة بينهم، فاتفق منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً على رأي واحد، فناظروا بقية الأساقفة فظهروا عليهم، فعقد الملك لهؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر مجلساً وقال لهم قد سلطتكم على المملكة، فاصنعوا ما بدا لكم مما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم»[1].

ومن الملاحظ أن معتقدات النصارى قبل انعقاد المجمع كانت على آراء كثيرة ومختلفة، وقد ذكر ابن القيم هذه الآراء[2]، نذكر منها باختصار ما يلي:

منهم من يقول: المسيح ومريم إلهان من دون الله.

ومنهم من يقول: المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار، تعلقت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها.

ومنهم من يقول: لم تحبل مريم تسعة شهور، وإنما مر نور في بطن مريم كما يمر الماء في الميزاب، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها، وهي مقالة (إليان) وأشياعه.

وهناك من يقول إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهرة، وأن ابتداء الإبن من مريم وأنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي صحبته النعمة الإلهية، فحلت منه بالمحبة والمشيئة فلذلك سمي ابن الله. ويقولون: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولايؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس وهذه مقالة بولس وأشياعه.

ومنهم من كان يقول: ثلاثة آلهة لم يزل صالح وطالح وعدل بينهما، وهي مقالة مرقيون وأشياعه.

---

(١) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥١-٢٥٥) تحقيق طه سعد، و«هداية الحيارى» (ص٥٥٣-٥٥٤) تحقيق د. الحاج.

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٥٤-٥٥٥).

ومنهم من كان يقول: ربنا هو المسيح، وهي مقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً.

وهؤلاء الثلاثمائة وثمانية عشر عقد لهم الملك مجلساً وسلطهم على المملكة وسمح لهم أن يصنعوا ما يريدون في الدين، وبالفعل فقد وضع هؤلاء الأساقفة -كما ذكر ابن القيم-[1] أربعين كتاباً فيها السنن والشرائع، وفيها ما يصلح أن يعمل فيها الأساقفة: وما يصلح للملك أن يعمل فيها.

وقد أورد ابن القيم قرارات هذا المؤتمر (مجمع نيقية)[2] نوردها في النقاط التالية:

أ- أن الابن مولود من الأب قبل كون الخلائق، وأن الإبن من طبيعة الأب غير مخلوق، فهو إلهٌ حق من جوهر أبيه، وهو من أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس، وصار إنساناً، وقتل وصلب، ودفن وقام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء.

ب- عدم السماح للأساقفة بالزواج مرة ثانية فدعوا إلى الرهبنة. كما اتفقوا على أن يكون فصح النصارى يوم الأحد.

جـ- حرمان آريوس وأتباعه ونفيه من البلاد لأنه وأتباعه -كما يقول إبراهيم خليل أحمد-[3] نادوا بأن يسوع إنسان بشر مخلوق وحاشا أن يكون هو الإله أو ابن الله إطلاقاً.

ونتابع ما ذكره ابن القيم عن المجامع باعتبارها المراجع الأساسية التي أقرت وثبتت الانحراف الذي هم عليه إلى اليوم في اعتقادهم في الألوهية وسائر المعتقدات الأخرى،

---

(١) نفس المرجع، (ص٥٥٥).

(٢) مجمع نيقية: سمي بهذا لأنه عقد بمدينة نيقية التي هي من أعمال اسطنبول وكان سنة (٣٥٢م) وهو المجمع المسكوني الأول.

(٣) أحمد، إبراهيم خليل -وهو سابقاً: القس إبراهيم خليل فليبس- «محاضرات في مقارنة الأديان» (ص٢٤).

فإذا فسدت عقيدتهم في الإله فإنه من باب أولى أن تفسد سائر معتقداتهم الأخرى ويحبط سائر عملهم.

المجمع الثاني: مجمع صور عام (٣٣٣م):

وقد ذكره ابن القيم[١] وفيه بيان رأي آريوس عن الوحدانية، وهو مجمع إقليمي عقد بعد مجمع نيقية حيث قرر المجتمعون فيه -وكان غالبيتهم من الموحدين- وحدانية الله وأن المسيح رسوله وفي هذا المجمع كاد الموحدون أن يفتكوا ببطريق الإسكندرية الذي كان يمثل فكرة ألوهية المسيح.

وهذا يبين لنا أن معظم المسيحيين في ذلك العصر كانوا من الموحدين لأن عقيدة التوحيد هي الأصل أما عقيدة ألوهية المسيح فهي عقيدة طارئة بثتها كنيسة الإسكندرية التي تأثرت بالفلسفات اليونانية والوثنية.

المجمع الثالث: مجمع القسطنطينية عام (٣٨١م):

وذكر ابن القيم[٢] أن هذا المجمع كان في القسطنطينية بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الأول[٣] وقد عقد للنظر في مقالة آريوس التي غلبت على الناس في أن روح القدس مخلوق ليس بإله، وقد خرجوا من هذا المجمع بلعن كل من يقول بمقالة آريوس مقررين أن روح القدس خالق غير مخلوق إله حق من طبيعة الأب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة، وأن روح القدس رب محيي ومميت، منبثق من الأب

---

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (ص٢٥٣)، و«هداية الحيارى» (ص٥٦١): نفس المحققين.

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٣).

(٣) وقد كان المجمع الأول بنيقية (٣٢٥م) ومن المعروف أن مجمع القسطنطينية الأول هذا كان (٣٨١م) فيكون ما بينهما ست وخمسين سنة لا ثمان وخمسون كما أشار ابن القيم -رحمه الله- وهو هكذا في الجواب الصحيح (٣/ ٣٣)، الحاج د. محمّد أحمد من كلامه على هامش (ص٥٦٢) من كتاب «هداية الحيارى» لابن القيم.

الذي مع الإبـن والأب، وهـو مسـجود لـه وممجـد، وبينـوا أن الأب والابـن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاثة وجـوه، وثـلاث خـواص، وحـدة في تثليـث، وتثليـث في وحدة.

وفي هذا المجمع يوضح ابن القيم فساد عقيدتهم في الإله حين قرروا أن الإله واحـد في ثلاثة وثلاثة في واحد، وهو ما سيتم بيانه عند الحديـث عـن التثليـث إن شـاء الله تعالى.

المجمع الرابع: مجمع أفسس الأول سنة (٤٣١م):

وبنفس الطريقة يذكر ابن القيم تاريخه قائلاً: «ثم بعد إحدى وخمسين سنة من هـذا المجمع كان لهم مجمع رابع...»[١].

وكان سبب انعقاده لعن نسطورس[٢] لقوله إن المسيح ابن الله على سـبيل الموهبـة والكرامة لا على سبيل الحقيقة، وقرروا أن مريم ولدت إلهاً، وأن المسيح إلهٌ حق مـن إلهٍ حق وهو إنسان وله طبيعتان؛ مع الله في الطبيعة ومع الناس في الناسوت، وانفض هذا المجمع على لعن نسطورس ومن قال بقوله، يقـول ابـن القيـم: «وكـل مجـامعهم كانت تجتمع على الضلال وتفترق على اللعن فلا ينفض المجمع إلا وهم ما بين لاعن وملعون»[٣].

المجمع الخامس: مجمع أفسس الثاني سنة (٤٤٩م):

ويبين ابن القيم سبب انعقاد هذا المجمع الخامس أنه كان بالقسطنطينية طبيب راهب

(١)ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٦٣) و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٥٤)نفس المحقق.

(٢)نسطورس أو نسطور ولد في جرمانيقية المعروفة الآن بمرعش في سورية وإليه ينسب مذهـب النسـطورية من كلام المحقق على «هداية الحيارى» د. الحاج نقلاً عن «تاريخ الأقباط» (١/ ١٦٠)

(٣)ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٥)

يقال له أوطيوس، كان يقول إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا بالطبيعة، فإن المسيح قبل التجسد من طبيعتين وبعد التجسد طبيعة واحدة، وهنا اجتمع إليه الأساقفة وناظروه فثبّت بطريق الإسكندرية مقالة أوطيوس وقطع بطارقة القسطنطينية وإنطاكية وبيت المقدس وسائر البطارقة والأساقفة، وأصبحت مقالة أوطيوس خاصة بمصر والإسكندرية، وهو مذهب اليعقوبية، وافترق هذا المجمع ولعن كل فريق الفريق الآخر[١].

المجمع السادس: مجمع خلقدونية[٢] سنة (٤٥١م):

وقد انعقد للنظر في مقالة أوطيسوس التي أفسدت دين النصرانية حيث اجتمع ستمائة وثلاثون أسقفاً وقرروا لعن أوطيسوس وبطريق الإسكندرية، وأثبتوا أن المسيح إله وإنسان وهو مع الله في اللاهوت ومعنا في الناسوت له طبيعتان تامتان فهو تام باللاهوت وتام بالناسوت ومسيح واحد، كما لعنوا آريوس وقالوا: «إن روح القدس إله، وقالوا إن الأب والإبن وروح القدس واحد بطبيعة واحدة، وأقانيم ثلاثة، وقالوا إن مريم العذراء ولدت إلهاً ربنا يسوع المسيح الذي هو مع الله في الطبيعة ومع الناسوت في الطبيعة ولعنوا نسطورس وبطريق الإسكندرية، وانفض هذا المجمع ما بين لاعن وملعون»[٣].

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٦٥) تحقيق د. محمّد الحاج الذي بين أن هذا المجمع كان بداية الإنقسام في النصرانية والذي نشأ عنه ما يسمى اليوم بالكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وقد تم الإنقسام تماماً في مجمع خلقدونية، حيث تزعمت الكنيسة المصرية القبطية الكنيسة الشرقية، وتزعمت كنيسة روما الكنيسة الغربية (هامش ص٥٦٦) من «هداية الحيارى».

(٢) وسمي بذلك لأنه عقد بمدينة خلقدون حيث صرح ابن القيم باسم هذه المدينة (خلقدون) وخلقدونية كما هي في «معجم البلدان» الثغر الذي منه المصيصة وطرسوس وغيرهما. «معجم البلدان».

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٦٦-٥٦٧)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٦) نفس المحقق.

المجمع السابع: مجمع معارض لمجمع خلقدونية:

يذكر ابن القيم أن هذا المجمع عقد أيام أنسطاس الملك[1] وقد بين رحمه الله سبب انعقاده وذلك أن الملك أنسطاس وسورس القسطنطيني كانا على رأي أوطيسوس الذي يقول إن المسيح ذو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وأقنوم واحد، ولكن الرهبان في بيت المقدس رفضوا مقالة سورس وأجمعوا على لعن أوطيسوس وسورس ومن يقول بمقالتهم، وانفض هذا المجمع على التلاعن»[2].

المجمع الثامن: مجمع القسطنطينية الثاني سنة (٥٥٣م):

وسببه -كما يذكر ابن القيم[3]- أن أسقف منبج[4] كان يقول بالتناسخ وأنه ليس هناك قيامة وكان أساقفة آخرون يقولون إن جسد المسيح خيال غير حقيقة، فحشرهم الملك إلى القسطنطينية وقال لهم بطريقها: إن كان جسده خيالاً فيجب أن يكون فعله وقوله خيالا وكل جسد نعاينه لأحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك، وقال لأسقف منبج إن المسيح قد قام من الموت وأعلمنا أنه كذلك يقوم الناس من الموت يوم الدينونة، واحتج بنصوص من الإنجيل كقوله: «إن كل من في القبور إذا سمعوا قول ابن الله يجيبوا» فكيف تقولون ليس قيامة؟ فأوجب عليهم الخزي واللعن وأقروا أن المسيح حقيقة لا خيال وأنه إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيئين وفعلين،

---

(١) وكان أنسطاس ملكاً على الروم سبعاً وعشرين سنة، وكان يعقوبياً مخالفاً لمقالة الملكية وكان من مدينة حماة فأمر أن تبنى وتحصن. «تاريخ ابن البطريق» (١/ ١٩١) بواسطة د. الحاج من كلامه على «هداية الحيارى» (ص٥٦٨).

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٦٨-٥٦٩)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٦).

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٧٠، ص٥٧١)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٨).

(٤) منبج: بالفتح ثم السكون وباء موحدة مكسورة وجيم، وهي بلدة واسعة وقديمة وخيراتها كثيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. الحموي، ياقوت «معجم البلدان» (٥/ ٢٠٦).

أقنوم واحد، وأن الدنيا زائلة، والقيامة كائنة، وأن المسيح يأتي بمجد عظيم فيدين الأحياء والأموات.

المجمع التاسع: مجمع القسطنطينية الثالث سنة (٦٨٠م):

وتاريخه -كما يذكر ابن القيم-[١] كان على أيام معاوية بن أبي سفيان ﷺ وفيه تم لعن من يقول بأن للمسيح مشيئة واحدة[٢] وقرروا الإيمان بالثالوث الابن الوحيد الذي هو الكلمة الأزلية الدائم المستوي مع الأب الإله في الجوهر، الذي هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد، ووجه واحد، يعرف تاماً بلاهوته تاماً بناسوته، وأن الإله الابن اتخذ من مريم العذراء جسداً إنساناً بنفسين، وذلك برحمة الله تعالى محب البشر ولم يلحقه اختلاط ولا فساد ولا فرقة ولا فصل، ولكن هو واحد، يعمل بما يشبه الإنسان أن يعمله في طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله في طبيعته، الذي هو الابن الوحيد، والكلمة الأزلية المتجسدة إلى أن صارت في الحقيقة لحماً، كما يقول الإنجيل المقدس من غير أن تنتقل عن محلها الأزلي، وليست بمتغيرة، لكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين إلهي وإنسي.

المجمع العاشر:

وقد أثبتوا فيه قول المجامع الخمسة ولعنوا من لعنهم وخالفهم ثم انصرفوا، وهنا يقول ابن القيم: «فانقرضت هذه المجامع والحشود، وهم علماء النصارى وقدماؤهم، وتناقلوا الدين إلى المستأخرين، وإليهم يستند من بعدهم، وقد اشتملت هذه المجامع العشرة المشهورة على زهاء أربعة عشر ألفاً من الأساقفة والبطارقة والرهبان، كلهم يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً»[٣].

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٧٠، وص٥٧١)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٨).

(٢) يذكر الإمام أبوزهرة، محمّد في كتابه «محاضرات في النصرانية»، أن يوحنا مارون كان على رأس الملعونين في هذا المجمع ولذلك كان من آثار هذا المجمع ظهور طائفة المارونيين.

(٣) ابن القيم، «هداية الحيارى» (ص٥٧٣)، تحقيق د. الحاج.

ومن المعلوم أن هناك مجامع كثيرة عقدها النصارى غير هذه التي ذكرناها بتصرف عن كتابي ابن القيم وهي العشرة المشهورة كما وصفها ابن القيم رحمه الله حيث ذكر أبوزهرة[1] أن المجامع ابتداء من القرون الأولى للمسيحية حتى سنة (١٨٦٩م) قد بلغت عشرين مجمعاً.

ونحن هنا لا نريد تتبع هذه المجامع فقد اقتصرنا على الأولى منها المهمة والمشهورة وهي التي ناقشت عقيدة النصارى في الإله وما تبع ذلك من قولهم بالتثليث وألوهية عيسى والروح القدس وما دارحول هذه العقائد من خلاف شديد، ثم رأينا كيف تنتهي تلك المجامع إلى التلاعن والفرقة والاختلاف، وعلى هذا التلاعن قام دينهم، يقول ابن القيم: «فدينهم إنما قام على اللعنة بشهادة بعضهم على بعض، وكل منهم لاعن ملعون»[2].

وبدراستنا لهذه المجامع ظهر لنا أن ابن القيم رحمه الله قد استخدم المنهج التاريخي، وكان ذلك واضحاً عندما كان يتدرج مع كل مجمع ببيان زمنه وتاريخه.

وإذا ما انتقلنا إلى تعليق ابن القيم على هذه المجامع -التي أفسدت عقيدة التوحيد عند النصارى وكشفت زيف عقيدتهم في الإله- لوجدناه رحمه الله يستخدم المنهج العقلي من خلال تعجبه لأقوالهم التي تخالف كل معقول، فهو يتعجب منهم وقد عاشوا في زمن قريب من أيام المسيح، والأحبار ما زالوا فيهم، والدولة دولتهم، والكلمة كلمتهم، وعلماؤهم إذ ذاك أوفر ما كانوا فيقول متعجباً ومستغرباً: «ثم هم مع ذلك تائهون حائرون بين لاعن وملعون لا يثبت لهم قدم ولا يتحصل لهم قول في معرفة معبودهم بل كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، وباح باللعن والبراءة ممن اتبع سواه،» ثم يتابع بتهكم: «إذا كان هذا حالهم، فما ظنك بمن في عصرنا وهم نخالة الماضين

---

(١) أبوزهرة، محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص١١١).

(٢) ابن القيم، «هداية الحيارى» (ص٥٧٣)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٩،٢٦٠).

ونفاية الغابرين وزبالة الحائرين وذرية الضالين، وقد طال عليهم الأمد، وبعد العهد، وصار دينهم ما يبلغونه عن الرهبان»[١].

وقد بين رحمه الله أن دين النصارى مبني على معاندة العقول والشرائع وتنقص إله العالمين، وبين كذلك أن كل نصراني لا يأخذ بخطة من هذه البلية فليس بنصراني على الحقيقة، ثم يتساءل: «أفليس هو الدين الذي أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين على أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد؟ فيا عجبا كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله، ومنتهى علمه؟ »[٢].

ثم تراه رحمه الله يخاطبهم بالرجوع إلى عقولهم وخطرهم قائلاً: «ألم يكن في هذه الأمة من يرجع إلى عقله وفطرته ويعلم أن هذا عين المحال، وإن ضربوا له الأمثال -(أي للإله)- واستخرجوا له الأشباه».- ثم يرد مؤكداً-:» فلا يذكرون أصلاً ولا شبهاً إلا وفيه بيان خطئهم وضلالهم، كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت، وامتزاجه به باتحاد النار والحديد، وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن، وتشبيه آخرين بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن إلى غير ذلك حتى صارحقيقة أخرى، تعالى الله -عز وجل- عن إفكهم وكذبهم»[٣].

ووفق هذا المنهج العقلي ينقل ابن القيم ما قاله بعض ملوك الهند[٤] -عندما ذكرت له الملل الثلاث- فقال: «أما النصارى فإن كان محاربوهم من أهل الملل يحاربونهم بحكم شرعي، فإني أرى ذلك بحكم عقلي وإن كنا لا نرى بحكم عقولنا قتالاً، ولكن استثني هؤلاء القوم من بين جميع العوالم؛ لأنهم قصدوا مضادة العقل، وناصبوه

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٧٣)، و «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٥٩،٢٦٠).

(٢) ابن القيم، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٨)، تحقيق طه سعد.

(٣) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٠) نفس المحقق.

(٤) وكالعادة -ويبدو أنها طريقته ومنهجه في النقل- لم يصرح ابن القيم باسم هذا الملك الذي هو من ملوك الهند.

العداوة، وحادوا عن السلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع، فشذوا عن جميع مناهج العالم الصالحة العقلية والشرعية، واعتقدوا كل مستحيل ممكناً، وبنوا على ذلك شريعة لا تؤدي ألبتة إلى صلاح نوع من أنواع العالم، إلا أنها تصيّر الرشيد سفيهاً، والحسن سيئاً، لأن من كان أصل عقيدته التي جرى نشوءه عليها: الإساءة إلى الخالق، والنيل منه، ووصفه بضد صفاته الحسنى؛ فأخلق به أن يستسهل الإساءة إلى المخلوق، مع ما بلغنا عنهم من الجهل وضعف العقل، وقلة الحياء، وخساسة الهمة»[1].

ومن بين الأمور التي أفسدت عقيدة النصارى في الإله وبينها ابن القيم وفق منهجه العقلي؛ ما قاله: «ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة؛ أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له.

والثاني: تنقص الخالق وسبه، ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه -سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً- نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام هناك تسعة أشهر، يتخبط بين البول والدم، وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمص الثدي، ولف في القمط، وأودع السرير، يبكي ويجوع، ويعطش، ويبول، ويتغوط، ويحمل على الأيدي والعواتق، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً، وألبسوه إكليلاً من الشوك، وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا وهو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم، وهو المعبود المسجود له»[2].

وهذا الذي ذكره ابن القيم إنما هو رد منطقي وعقلي حيث لا يقبل من كان ذو

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٠) نفس المحقق.

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦١).

عقل أن يكون إلهه بهذا الوصف وهذه المسبة العظيمة لله سبحانه وتعالى قال ابن القيم[1]: «ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم كما قال تعالى فيما يحكى عنه رسوله الله الذي نزهه ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذي ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً﴾ [مريم:٩٠].

فقال: «شتمني ابن آدم، وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً؛ وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته»[2].

قال عمر بن الخطاب ﷺ في هذه الأمة: «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر»[3].

وفي معرض رد ابن القيم ونقده لعقيدة النصارى في الإله وفق منهج عقلي تراه يقول: «ولعمر الله إن عباد الأصنام، مع أنهم أعداء الله عز وجل على الحقيقة، وأعداء رسله عليهم السلام، وأشد الكفار كفراً، يأنفون أن يصفوا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى -وهي من الحجارة والحديد والخشب- بمثل ما وصفت به هذه الأمة رب العالمين، إله السموات والأرضين، وكان الله في قلوبهم (أي قلوب عباد الأصنام) أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك، أو بما يقاربه، وإنما شرك القوم: أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة، وزعموا أنها تقربهم إليه، لم يجعلوا

---

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦١).

(٢) العسقلاني، «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، كتاب التفسير عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة، الآية ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ وأيضاً عند تفسير سورة الإخلاص، كما ذكره البخاري في بدء الخلق (٥٩/ ١-٣١٩٣).

(٣) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٢).

شيئاً من آلهتهم كفواً له، ولا نظيراً ولا ولداً، ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة»[١].

ومن صور شركهم با لله سبحانه وتعالى ما ذكره ابن القيم[٢] من سجودهم لصورة مريم والمسيح وجرجس وبطرس وغيرهم ويدعونها من دون الله تعالى وليس وراء هذا في القبح والظلم شيء ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، لأن الشرك بطلانه وقبحه معلوماً بالفطرة السليمة والعقول الصحيحة والعلم بقبحه أظهر من العلم بقبح سائر القبائح.

وإذا ما استقرأنا طريقة ابن القيم في نقده لعقيدة النصارى في الإله فإننا نجده يستخدم المنهج النقلي مستشهداً ومدللاً بآيات من القرآن الكريم، وكذلك من الحديث الشريف مؤكداً على ضلال النصارى حيث يقول[٣]: «قوم إذا كشفت عنهم وجدتهم أشبه شيء بالأنعام، وإن كانوا في صور الأنام، بل هم كما قال تعالى -ومن أصدق من الله قيلاً-: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤]، ثم تابع ابن القيم مستشهداً من القرآن الكريم قائلاً: «وهؤلاء الذين عناهم الله بقوله: ﴿قُلْ يَـأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

كما استشهد ابن القيم بقول رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[٤]. ويذكر ابن القيم أنه لو عرض دين النصرانية هكذا على قوم لم يعرفوا لهم إلهاً، لتوقفوا عنه وامتنعوا من قبوله[٥].

---

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٢).

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٧٠).

(٣) ابن القيم، «هداية الحيارى» (ص٥٧٤).

(٤) البخاري، محمّد بن إسماعيل «صحيح البخاري» كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور، وهو عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. كما أخرجه أيضاً الإمام مسلم في صحيحه.

(٥) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٢٢) تحقيق د. الحاج.

وينتهي ابن القيم إلى الموازنة بين الدين المسيحي وبين ما جاء به نبينا ﷺ فيقول: «فوازن بين هذا وبين ما جاء به خاتم الرسل والأنبياء -عليهم جميعاً صلوات ربي وسلامه- تعلم علماً يضارع المحسوسات أو يزيد عليها أن الدين عند الله الإسلام»(١).

ومما سبق يتضح لنا أن ابن القيم رحمه الله قد استخدم المنهج العقلي والنقلي في نقده لعقيدة النصارى في الإله بالإضافة إلى المنهج التاريخي عند دراسته رحمه الله للمجامع النصرانية، ثم انتهى إلى منهج المقارنة بين الدين المسيحي الذي تلقته النصارى عن أساقفتهم وبطارقتهم وبين دين الإسلام الذي تلقاه المسلمون عن محمّد ﷺ حيث يتأكد من هذه الموازنة أن الدين عند الله الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾. [آل عمران:١٩].

المطلب الثاني
موقف ابن القيم من عقيدة التثليث

تعتبر عقيدة التثليث من الأمور الطارئة على ديانة المسيح عليه السلام وكان شاؤول بولس هو الذي جاهد لنشر عقيدة ألوهية المسيح وبنوته لله ثم أقرت هذه العقيدة في مجمع نيقية سنة (٣٢٥م) بأمر الملك قسطنطين ثم أقرت عقيدة ألوهية الروح القدس في مجمع القسطنطينية سنة (٣٨١م) فبمجموع قرارات هذين المجمعين اكتملت عقيدة التثليث عند النصارى كعقيدة مناقضة لعقيدة التوحيد التي دعا إليها عيسى عليه السلام.

وعلى الرغم من اختلاف النصارى في دينهم أشد الاختلاف إلا أنهم جميعاً يتفقون على القول بالتثليث، ويعتبرونه أساساً للديانة النصرانية، أما النص الذي يؤمنون به

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٢٢) تحقيق د. الحاج.

ويقرون به التثليث فهو نص عقيدة كنيسة أنطاكية التي يسمونها (كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى) ونصها:

«أؤمن بإله واحد، أب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إلهٌ حق من إلهٍ حق مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجله لحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنَّس وصُلب عنا على عهد (بيلاطس) البنطي، وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب، وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه. وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والإبن مسجود له، وممجد الناطق بالأنبياء. وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي»[١].

والكنائس الثلاثة اليوم[٢] تؤمن بهذا القانون وتعتبره أساس عقيدتها، وإن كان نص هذا القانون يختلف قليلاً في النص الكاثوليكي عن هذا النص، لأن كنيسة أنطاكية أرثوذكسية، ولا داعي لإثبات هذا الفرق، وقد وضع مجمع أفسس سنة (٤٣١م) مقدمة لهذه الأمانة وهي «نعظمك يا أم النور الحقيقي، ونمجدك أيتها العذراء المقدسة والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلد نفوسنا»، المجد

---

(١) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص١٩٦)، وطعيمة، د. صابر «الأسفار المقدسة قبل الإسلام» (ص٢٢٦).

(٢) الكنائس الثلاثة (كما وردت في نفس الكتابين السابقين بنفس الصفحات) هي:

أ- الكنيسة الكاثوليكية ومركزها روما.

ب- الكنيسة الأرثوذكسية ومركزها القسطنطينية والإسكندرية وهي تمثل الأقباط والحبشة وتركيا وروسيا والأرمن وكنيسة أنطاكية.

جـ- الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية.

لك يا سيدنا وملكنا المسيح، فخر الرسل إكليل الشهداء، تهليل القديسين، ثبات الكنائس، غفران الخطايا، نبشر بالثالوث المقدس، لاهوت واحد، نسجد له ونمجده، يارب ارحم، يا رب ارحم، يا رب بارك آمين»(1).

والحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان أن النصارى أنفسهم لا يدركون ولا يفهمون حقيقة عقيدة التثليث -واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد- لأنها تصطدم مع العقل البشري فلا يستطيع هضمها وإدراكها، والنصارى أنفسهم لا يسمحون لعقولهم بالتعمق في كنهها يقول زكي شنودة: «وهذه حقيقة تفوق الإدراك البشري الذي لا يفهم إلا أن الطبيعة الواحدة إنما تتضمن أقنوماً واحداً، أي ذاتاً واحدة، وأن تعدد الأقانيم أو الذات إنما يستوجب تعدد الطبائع»(2).

والنصارى يقرون ويعترفون بعدم قبول العقل لعقيدة التثليث، وفي هذا ينقل د. الحاج عن القس توفيق جيد من كتابه (سر الأزل) قوله: «إن الثالوث سر يصعب فهمه وإدراكه، وإن من يحاول إدراك سر الثالوث تمام الإدراك كم يحاول وضع مياه المحيط كلها في كفة»(3).

ورغم هذا التعقيد الذي تتصف به هذه العقيدة، واعتراف أصحابها بذلك فسأبين على وجه الاختصار معنى الثالوث والأقانيم.

فالثالوث كلمة تطلق على وجود ثلاثة أقانيم معاً في اللاهوت، وتعرف بالأب والابن والروح القدس، وقد بين الأستاذ محمّد فريد وجدي في دائرة معارفه(4) معنى

---

(1) طعيمة، د. صابر «الأسفار المقدسة قبل الإسلام» (ص226-227). نقلاً عن «تاريخ الأقباط» لزكي شنودة (1/ 178).

(2) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» (ص207)، نقلاً عن «تاريخ الأقباط» لزكي شنودة (1/ 237).

(3) الحاج، د. محمّد أحمد، نفس المرجع، (ص207).

(4) وجدي، محمّد فريد «دائرة معارف القرن العشرين» (10/ ص197-198).

التثليث قائلاً: «الخالق واحد ولكنه في وحدته مؤلف من ثلاثة أقانيم[1] (أي ثلاثة أصول أو عناصر) وهي الأب والابن والروح القدس، ويعتبر الأصل الأول أعظم أسرار النصرانية ويحده اللاهوتيون بقولهم: «الإله واحد في ثلاثة أقانيم متميزين (أب وابن وروح قدس) كل أقنوم قائم بذاته، طبيعتهم واحدة وجوهرهم واحد، أزليون على حد سواء ولكن باختلاف المنشأ، فالأب موجود بنفسه لم يأخذ الوجود من سواه، والإبن متولد من الأب، والروح القدس منبثق من كليهما، ويمثل النصارى الأب بشيخ هرم قد جلله الشيب، عابس الوجه على وشك الانتقام، والابن شاب وديع يقدم نفسه ضحية للأب، والروح القدس بحمامة بيضاء مستقرة على كليهما، هذا التحديد هو الأكثر شيوعاً بين الطوائف النصرانية، ويخالفه الروم الأرثوذكس في مسألة انبثاق الروح القدس، وقد أجمعوا على أن هذا من الأسرار التي لا يجوز لأحد الخوض فيها».

فكلمتا الثالوث، والأقانيم مترادفتان، فالثالوث هو ثلاثة أقانيم منفصلة عند بعض طوائف النصارى، متحدة ممتزجة عند طوائف أخرى، وقد تعرض ابن القيم رحمه الله، لمسألة التثليث وبين اختلاف النصارى أنفسهم في تحديد مفهومها.

فنقل ما قاله شيخه ابن تيمية في ذلك: «فلو سألت الرجل وامرأته وابنته وأباه وأمه عن دينهم لأجابك كل واحد منهم بغير جواب الآخر، ولو اجتمع عشرة منهم يتذاكرون الدين لتفرقوا عن أحد عشر مذهباً، مع اتفاق فرقهم على القول بالتثليث»[2].

ثم تعرض ابن القيم لأقوالهم مبيناً أنها لا يمكن أن تنسجم أو تتلائم مع بعضها،

---

(١) الأقانيم: كلمة سريانية الأصل مفردها (أقنوم) وهو الشخص الكائن المستقل بذاته. مرجان، محمّد مجدي (الله واحد أم ثالوث) (ص١٠).

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أحمد، «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٣/ ١٦٤)، وقد ذكره ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٥٣٣).

بأسلوب يظهر فيه التهكم من أقوالهم، ونرى ذلك جلياً في قوله بعد نقل مقولتهم: وقالوا: «والذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله، وهو ابن الله، وهو كلمة الله»[1].

وقد عقب ابن القيم مستهزئاً بمثل هذه المعتقدات: «القديم الأزلي خالق السموات والأرض، هو الذي حبلت به مريم وأقام تسعة أشهر، وهو الذي ولد ورضع، فطعِم وأكل وشرب وتغوط، وأخذ وصلب وشد بالحبال وسمرت يداه»[2]. ويذهب ابن تيمية -رحمه الله- إلى أن من أعظم القبائح المحرمة في جميع الشرائع والأديان أن يقول الإنسان على الله قولاً لا يتصوره ولا يفهمه[3].

واكتفى ابن القيم بعد ذلك لبيان بطلان عقيدة التثليث بإيراد اختلاف فرقهم في تحديد الثالوث، فاستعرض أشهر الفرق التي اختلفت في طبيعة المسيح عليه السلام، كما أن ابن القيم رحمه الله قد ظهر رده جلياً على هذه المسألة حين أبطل قولهم الذي يزعمون فيه ألوهية المسيح وهو ما سنوضحه أيضاً في سياق البحث إن شاء الله.

ولا يفوتنا هنا موقف القرآن الكريم من هذه المسألة، حيث كان ابن القيم يستعين به في إفحام الخصم، وقد جاء النص القرآني مبيناً مخالفتهم لحكم العقل الإنساني ومبطلاً ادعاءهم التثليث ودعاهم إلى التوحيد الخالص وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء:١٧١].

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٣)، تحقيق د. محمّد الحاج.

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٣)، تحقيق د. محمّد الحاج.

(٣) ابن تيمية، «الجواب الصحيح» (٣/ ١٣١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة:٧٣].

ويذكر محمّد وجدي في دائرة معارفه[1] أن الناقدين من النصارى يرفضون هذه العقيدة ويقولون إن هذا الثالوث مأخوذ عن الهنود الذين يقولون بتركب الإله من ثلاثة أقانيم وهم (براهما) و(فشنو) و(سيفا)، ويقولون أيضاً أن الفرس كان لهم ثالوث وكذلك المصريين القدماء كان لهم ثالوث، وأن هذا التثليث في النّصرانية كان بتأثير من هذه العقائد القديمة عند الهنود، والفرس والمصريين وغيرهم.

ثم إن العامل الأهم في تثبيت عقيدة التثليث وجعلها أساساً في النصرانية هو الدولة الرومانية بما سربته من عقائد وثنية إلى النصرانية، وقد بين ابن القيم رحمه الله هذا مؤكداً أن الدولة الرومانية استطاعت أن تؤثر في صلب العقيدة النصرانية وأول ما ظهر ذلك التأثر في مجمع نيقية[2]. الذي أقر ألوهية المسيح ثم أقرت عقيدة التثليث في مجمع القسطنطينية الأول عام (٣٨١م).

يقول الشيخ رحمة الله الهندي: «إن قائل التثليث لا يمكن أن يكون موحداً لله تعالى بالتوحيد الحقيقي فذلك فيه سفسطة محضة، لأنه إذا ثبت أن الشيئين بالنظر إلى ذاتيهما ضدان حقيقيان أو نقيضان في نفس الأمر فلا يمكن اجتماعهما في أمر واحد في زمان واحد»[3]. ويقول عبدالله الترجمان[4] -بعد أن هداه الله إلى الإسلام-:

---

(١) وجدي، محمّد فريد «دائرة معارف القرن العشرين» (١٠/ ١٩٨).

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٤٠) تحقيق د. محمّد الحاج.

(٣) الهندي، رحمت الله «إظهار الحق» (٣/ ٧٢٥)، تحقيق د. محمّد ملكاوي.

(٤) عبدالله الترجمان: هو أبومحمد عبدالله الترجمان الميورقي المتوفي سنة (٨٣٢هـ) وكان يدعي قبل إسلامه (انسلم تورميدا) ولقب رحمه الله بالترجمان لانشغاله بترجمة الرسائل التي ترد إلى السلطان أبي العباس من قبل الفرنجة، وقد ولد رحمه الله في جزيرة (ميورقا) التي تقع في الطرف الجنوبي الشرقي من أسبانيا ويقدر =

«وعندهم أنه لا يمكن دخول الجنة إلا بالإيمان بالتثليث بالاعتقاد بأن الله ثالث ثلاثة» ، ويعلق على ذلك فيقول: «ولا يشك ذو عقل سليم، أن كل من له مسكة من العقل يجب عليه أن يرغب بنفسه عن اعتقاد هذا الإفك الغثيث البارد السخيف الرذيل الفاسد، الذي ننزه عنه عقول الصبيان ويضحك منه ذوو الأفهام والأذهان، فالحمد لله الذي أخرجني من زمرتهم وعافاني من بليتهم»[1].

المطلب الثالث

نقد ابن القيم لعقيدة الصلب والفداء

يرى ابن القيم رحمه الله أن الأصل الذي قامت عليه عقيدة الصلب والفداء يرجع إلى أن أرواح الأنبياء عليهم السلام كانت في الجحيم في سجن إبليس، من عهد آدم إلى زمن المسيح، فكان ابراهيم وموسى وصالح وهم معذبين مسجونين في النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام، وأكله من الشجرة، وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه، ثم إن الله سبحانه وتعالى لما أراد رحمتهم

مولده عام (٧٥٦هـ) وقد كان وحيد أبويه عاش في بيئة نصرانية ونشأ على عقيدة النصارى حتى أصبح راهباً وذا معرفة دقيقة بالإنجيل كما أنه أصبح عالماً ضليعاً بعلوم (الكتاب المقدس) وعقائد النصارى وفرقهم وأساليبهم وتقاليدهم وقد تأثر -رحمه الله- بالمؤلفات والكتب الإسلامية التي اطلع عليها خلال إقامته بتونس أما السبب في إسلامه فهو حضوره عندما كان راهباً لإحدى جلسات رجال الكنيسة التي يناقشون فيها مسائل العقيدة، وفي إحدى هذه الجلسات دار الخلاف بين المجتمعين حول كلمة (الباروقليط) والذي حدا به في أن يلح في طلب معرفة حقيقية الباروقليط فصرح له بعد إلحاح شديد أن هذه الكلمة تعني اسماً من أسماء النبي محمّد ﷺ، وبعد هذا الأمر سافر رحمه الله إلى تونس حيث أعلن إسلامه عند أحد أمراء الدولة الحفصية، وتوفي رحمه الله بتونس (٨٣٢هـ) وقبره معروف إلى الآن بسوق السراجين (الداعوق، عمر وفيق- من كلامه في الدراسة والتحقيق التي أجراها على كتاب «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» لأبي محمّد عبدالله الترجمان الميورقي (ص٢٣-٣٠).

(١) الترجمان، عبدالله، «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» (ص١٣٩-١٤١) تحقيق عمر الداعوق.

وخلاصهم من العذاب، تحيل على إبليس بحيلة، فنزل عن كرسي عظمته، والتحم ببطن مريم، حتى ولد وكبر وصار رجلاً، فمكّن أعداءه اليهود من نفسه، حتى صلبوه، وتوجوه بالشوك على رأسه، فخلص أنبياءه ورسله، وفداهم بنفسه ودمه، فهرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم، إذ كان ذنبه باقياً في أعناق جميعهم، فخلصهم منه بأن مكّن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه، إلا من أنكر صلبه أو شك فيه، أو قال: بأن الإله يجل عن ذلك، فهو في سجن إبليس معذب حتى يقر بذلك، وأن إلهه صلب وصفع وسمر[1].

وتعتبر عقيدة الصلب والفداء الأساس الثاني من أسس العقيدة المسيحية وأساس ذلك عند المسيحيين -كما بينها بعض الكتاب المعاصرين-[2] أن من صفات الله العدل والرحمة، فبمقتضى صفة العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوهم وطرد بها من الجنة، واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها، وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر ولم يكن هناك طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله ووحيده، وقبوله أن يظهر في شكل إنسان، وأن يعيش كما يعيش الإنسان، وهذا ما يعبر عنه في لغة النصارى بظهورالله في الجسد، حيث جاء بالشكل المنسوب للمسيح، ثم يصلب ليكفر خطيئة البشر، وهنا تمت المصالحة بين الله والناس.

ويذكر أبوزهرة[3]: «ما جاء في الكتب المقدسة عندهم أن الله من صفاته المحبة ومحبة الله ظهرت في تدبيره طريق الخلاص للعالم، لأن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة، وهبوطه هو وبنيه إلى الدنيا، مبتعد عن الله بسبب تلك الخطيئة، ولكن الله من فرط

---

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٢) تحقيق طه سعد.

(٢) الطهطاوي، المستشار محمّد عزت: ١- «النصرانية والإسلام» (ص٤٦)، ٢- «الميزان في مقارنة الأديان» (ص ١٥٥+ص٢١٨)، و شلبي، د. أحمد «مقارنة الأديان - المسيحية» (ص١٣٦)، وحربي، د. محمّد «ابن تيمية وموقفه من أهم الفرق والديانات في عصره» (ص٤٢٩).

(٣) أبوزهرة، الإمام محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص٩٨).

محبته، وفيض نعمته رأى أن يقربه إليه بعد هذا الابتعاد، فأرسل لهذه الغاية ابنه الوحيد إلى العالم، ليخلص العالم، وقد جاء في إنجيل لوقا: «وإن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب، ويخلص ما قد هلك» فبمحبته ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص، لهذا كان المسيح هو الذي يكفر عن خطايا البشر، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى، وبين عدله ورحمته، وقد كان التفكير الذي قام به المسيح هو الصلب، لهذا صلب»[1].

ويذكر ابن القيم[2] أن النصارى بعد زمن المسيح عليه السلام ابتدعوا تعظيم الصليب فعبدوه وسجدوا له، وأن أحدهم إذا اجتهد في اليمين، بحيث لا يحنث ولا يكذب، حلف بالصليب، ويكذب إذا حلف با لله، ولا يكذب إذا حلف بالصليب.

والصليب -كما يذكر ابن القيم- هو الخشبة التي صلبوه عليها، ويؤكد رحمه الله أن النصارى جميعهم متفقون على أن اليهود أخذوا إلههم المسيح -تعالى الله عن ذلك- وساقوه بينهم ذليلاً مقهوراً، وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها، وهم يبصقون في وجهه، ويضربونه، ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات، وتركوه مصلوباً حتى التصق شعره بجلده لما ييبس دمه بحرارة الشمس، ثم دفن، وأقام تحت التراب ثلاثة أيام، ثم قام بلا هويته من قبره. يقول ابن القيم: «هذا قول جميعهم ليس فيهم من ينكر فيه شيئاً»[3].

وهنا يبطل ابن القيم هذا الكذب الذي قالوه عن المسيح بمنهج عقلي حيث خاطب رحمه الله العقل في دحض ورد ادعائهم قائلاً: «فيا للعقول! كيف كان حال هذا العالم

---

(١) ناقش المستشار محمّد عزت طهطاوي عقيدة الصلب والفداء عند النصارى ورد على حججهم بمنطق عقلي يفحم الخصم ويلزمه الحجة وقد وردت هذه المناقشة في كتابيه «النصرانية والإسلام» (ص٤٩)، و «الميزان في مقارنة الأديان» (ص٢١٩).

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٤) تحقيق طه سعد.

(٣) نفس المرجع السابق (٢/ ٢٦٨).



في هذه الأيام الثلاثة؟ ومن كان يدبر أمر السموات والأرض؟ ومن الذي خلف الرب سبحانه وتعالى في هذه المدة؟ ومن الذي كان يمسك السماء أن تقع على الأرض، وهو مدفون في قبره؟»[1].

ثم تراه رحمه الله يتعجب من قولهم ويفنده قائلاً: «ويا عجباً هل دفنت الكلمة معه بعد أن قتلت وصلبت أم فارقته وخذلته وهو أحوج ما كان إلى نصرها له، فإن كانت قد فارقته وتجرد منها فليس هو حينئذ المسيح، وإنما هو كغيره من آحاد الناس، وكيف يصح مفارقتها له بعد أن اتحدت به؟ ومازجت لحمه ودمه؟ وأين ذهب الاتحاد والامتزاج؟ وإن كانت لم تفارقه وقتلت وصلبت، ودفنت معه، فكيف وصل المخلوق إلى قتل الإله، وصلبه ودفنه؟»- ويتابع ابن القيم قائلاً: «ويا عجباً! أي قبر يسع إله السموات والأرض؟ هذا وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون»[2].

ومن الملاحظ أن خطاب ابن القيم هذا كان لذوي العقول فمن كان عنده مسكة من العقل فلا يمكن أن يصدق بما يقوله عباد الصليب وهذا رد عقلي مفحم للمعتقدين بصلبه عليه السلام.

ويلاحظ أيضاً أن حديث ابن القيم عن صلب المسيح وتفنيده لهذه العقيدة مبيناً بطلانها لا ينفصل عن حديثه عن الألوهية فيما يعتقده النصارى بألوهية المسيح وهنا يتضح بجلاء قوة رد ابن القيم على أقوالهم والتي أثبت فيها تناقض أقوالهم وتضاربها حيث أن قولهم بأن المسيح قد صلب يتناقض مع قولهم بألوهيته لأنه كيف يكون للمخلوقين قدرة على إيذائه وقتله وهو الإله القادر الذي لا يقدر عليه أحد وهو المهيمن العزيز الجبار المتكبر، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

---

(١) نفس المرجع السابق (٢/ ٢٦٨).

(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٨) تحقيق طه سعد.

ويتجلى منهجه العقلي رحمه الله في معرض رده على إفتراءاتهم بقوله: «ولو كان لهذه الأمة مسكة من عقل لكان ينبغي لهم أن يلعنوا الصليب من أجل معبودهم، وإلههم حين صلب عليه، كما قالوا إن الأرض لعنت من أجل آدم حين أخطأ، وكما لعنت الأرض حين قتل قابيل أخاه، وكما في الإنجيل: إن اللعنة تنزل على الأرض إذا كان أمراؤها الصبيان فلو عقلوا لكان ينبغي لهم ألا يحملوا صليباً، ولا يلمسوه بأيديهم، ولا يذكروه بألسنتهم، وإذا ذكر لهم سدوا مسامعهم عن ذكره»[1].

وتظهر براعة ابن القيم ورجاحة عقله وقوة حجته في الحوار الذي افترضه وأبطل فيه إدعاءهم بتعظيم الصليب، فنراه يحاورهم قائلاً[2]:

- أنتم تعظمون كل صليب، ولا تخصون التعظيم بذلك الصليب بعينه.

- فإن قلتم: الصليب من حيث هو يذكر بالصليب الذي صلب عليه إلهنا.

- قلنا: وكذلك الحفر تذكر بحفرته، فعظموا كل حفرة، واسجدوا لها لأنها كحفرته أيضاً بل أولى لأن خشبة الصلب لم يستقر عليها استقراره في الحفرة.

- ثم يقال: اليد التي مسته أولى أن تعظم من الصليب، فعظموا أيدي اليهود لمسهم إياه وإمساكهم له، ثم إنقلوا ذلك التعظيم إلى سائر الأيدي.

- فإن قلتم: منع من ذلك مانع العداوة، فعندكم أنه هو الذي رضي بذلك واختاره، ولو لم يرض به لم يصلوا إليه، فعلى هذا ينبغي لكم أن تشكروهم وتحمدوهم، إذ فعلوا مرضاته واختياره الذي كان سبب خلاص جميع الأنبياء والمؤمنين والقديسين، من الجحيم ومن سجن إبليس، فما أعظم منّةَ اليهود عليكم وعلى آبائكم، وعلى سائر النبيين من لدن آدم عليه السلام إلى زمن المسيح عليه السلام.

---

(١) نفس المرجع (٢/ ٢٦٤).

(٢) ورد هذا الحوار في كتابه «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٥).

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنهم يقرءون في التوراة: «ملعون من تعلق بـالصليب» وهم قد جعلوا شعار دينهم ما يلعنون عليه، ويتابع رحمه الله أن لو كان لهم أدنى عقل لكان الأولى بهم أن يحرقوا الصليب، حيث وجدوه، ويكسروه ويضمخوه بالنجاسـة، فإنه قد صلب عليه إلههم ومعبودهم بزعمهـم، وأهـين عليـه، وفضـح وخـزي.. فيـا للعجب، بأي وجه -بعد هذا- يستحق الصليب التعظيـم لـولا أن القـوم أضـل مـن الأنعام[1].

وقد استخدم ابن القيم رحمه الله في معرض رده علـى أبـاطيلهم ومـا افـتروه بحـق عيسى عليه السلام، الشعر وله من الأبيات في ذلك الكثير نقتبس منها قوله:

هـل بقـي الوجـود بـلا إلـه ... سميع يسـتجيب لمـن دعـاه؟
وهـل خلـت الطبـاق السبع لمـا ... ثوى تحت الـتراب وقـد عـلاه؟
وهـل خلـت العـوالم مـن إلـه ... يدبرهـا وقـد سمـرت يـداه؟
وكيـف تخلـت الأمـلاك عنـه ... بنصرهـم وقـد سمعـوا بكـاه؟
وكيف أطاقت الخشاب حمـل الـ ... إلـه الحـق شـد علـى قفـاه؟
وكيـف دنـا الحديـد إليـه حتـى ... يخالطـه ويلحقـه أذاه؟
وكيـف تمكنـت أيـدي عـداه ... وطالت حيث قد صفعوا قفـاه؟
وهـل عـاد المسـيح إلى حيـاة ... أم المحيـي لـه رب سـواه؟
ويـا عجبـاً لقـبر ضـم ربـاً ... وأعجب منـه بطـن قـد حـواه؟

ويقول أيضاً:

تعـالى الله عـن إفـك النصـارى ... سيسـأل كلهـم عمـا افـتراه[2]

ويذكر ابن القيم أن بعض أئمة الإسلام[3] كان إذا رأى صليباً أغمـض عينيـه عنـه

(١) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٤) تحقيق طه سعد.

(٢) نفس المرجع (٢/ ٢٦٩).

(٣) لم يصرح ابن القيم باسمه، وهذا من منهجه.

وقال لا أستطيع أن أملأ عيني ممن سب إلهه ومعبوده بأقبح السب[1]، وقد نقل ابن القيم عن عقلاء الملوك. (ولم يصرح باسمه)، قوله: «إن جهاد هؤلاء -أي النصارى- واجب شرعاً وعقلاً فإنهم عار على بني آدم، مفسدون للعقول والشرائع»[2].

ويختم ابن القيم كلامه في الرد على ادعاء النصارى بصلب المسيح بتنزيه الله تعالى عن كفرهم فيقول: «تعالى الله عز وجل عن إفكهم وكذبهم»[3].

فابن القيم رحمه الله قد استخدم العقل والنقل في إبطال قول النصارى بالصلب والفداء وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:١٥٧،١٥٨].

(١) نفس المرجع (٢/ ٢٦٣).
(٢) ابن القيم «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٣).
(٣) المرجع السابق (٢/ ٢٦٨-٢٦٩).

المبحث الثاني
عقيدة النصارى في النبوة

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
موقف ابن القيم من تأليه النصارى للمسيح عليه السلام

يرى ابن القيم رحمه الله أن النصارى بالغوا في تقديس عيسى عليه السلام، وغلوا في ذلك فقالوا: «يسوع في البدء لم يزل كلمة، والكلمة لم تزل الله والله هو الكلمة»[(١)] وأكد ابن القيم أن النصارى بجميع طوائفهم يؤلهون المسيح وينكرون نبوته فهم يقولون: «وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة بنبي ولا عبد صالح، بل هو رب الأنبياء وخالقهم، وباعثهم، ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم، ورب الملائكة»[(٢)]، كما يعتقدون بأنه «إله حق من إله حق من جوهر أبيه وأنه إله تام من إله تام، وأنه خالق السموات والأرض والأولين والآخرين، ورازقهم ومحييهم، ومميتهم وباعثهم من القبور وحاشرهم، ومحاسبهم، ومثيبهم ومعاقبهم»[(٣)]، ويبين ابن القيم أن النصارى تعتقد أن الأب انخلع من ملكه كله، وجعله لابنه فهو الذي يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويدبر أمر السموات والأرض[(٤)]، وينقل مقالتهم بقولهم: «ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع»

---

(١) الإنجيل، يوحنا(١/ ١، ٢، ٣٤) وذكره ابن القيم في «هداية الحيارى»(ص٤٩٠)، تحقيق د. الحاج.
(٢) ابن القيم «هداية الحيارى»(ص٤٩٠).
(٣) نفس المرجع السابق(ص٤٩١).
(٤) نفس المرجع السابق(ص٤٩١).

إلى قولهم: «بيده أتقنت العوالم وخلق كل شيء» إلى قولهم أيضاً: «وهو مستعد للمجيء تارة أخرى لفصل القضاء بين الأموات والأحياء»[1]، كما أنهم يقولون في مناجاتهم: «أنت أيها المسيح يسوع تحيينا وتميتنا وترزقنا وتخلق أولادنا وتقيم أجسادنا وتبعثنا وتجازينا»[2].

ويذكر ابن القيم أنهم يقولون هذا النص في صلاتهم[3] ولقد ذمهم الله عز وجل، وكفرهم بما قالوا، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:٧٢].

تلك هي بعض الأدلة التي ساقها ابن القيم رحمه الله من أقوالهم بين خلالها اعتقاد النصارى بألوهية المسيح، وقد بينا سابقاً أن النصارى أقروا ألوهية المسيح في مجمع نيقية الذي انعقد سنة ٣٢٥م، ويعتبر هذا العام أول تاريخ يتخذ فيه قرار ضد

---

(١) نفس المرجع السابق (ص٤٩١).

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٩٢).

(٣) صلاتهم: الصلاة عندهم ركن من أركان الدين، وهي في زعمهم تقربهم إلى الله عن طريق المسيح، والصلاة عندهم كلمات يتلونها يعبرون فيها عما يخالج قلوبهم من عواطف وأشواق، فالصلاة تكون ترجمان ذلك القلب المقتنع بوجود الله، فبالنظر مثلاً لاقتناع القلب بقداسة الله تكون الصلاة كلمات تسبيح وتعظيم له، وبالنسبة لاقتناعه بوجوده وإحسانه تكون الصلاة عبارات شكر وحمد، وبالنسبة لوقوعهم في الخطيئة تكون الصلاة كلمات تذلل وتواضع واستغفار وبالنسبة للاحتياج إليه تعالى تكون الصلاة طلباً ودعاء.

- والصلاة عندهم لها شرطان أساسيان لا توجد بدونهما: الشرط الأول: أن تقدم باسم المسيح، والشرط الثاني: أن يسبق الصلاة إيمان كامل بما عندهم وهو أن يكون طلبهم بإيمان غير مرتاب حتى ينالوه.

- وليست للصلاة عندهم عبارات خاصة معلومة يجب أن يتلوها، بل لهم أن يتلوا العبارات التي يختاروها بشرط أن لا تخرج عن قاعدة الصلاة التي علمهم إياها المسيح.

- وليس عليهم عدد معين من الصلوات كل يوم، كما أنه ليس لها مواقيت معلومة، بل كل ذلك قد وكل إلى نشاط المصلين ورغبتهم في العبادة. أبوزهرة - الإمام محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص١٠٢ص١٠٤).

التوحيد ويحكم بألوهية المسيح.

وقد ناقش ابن القيم رحمه الله أدلتهم التي يستدلون بها على ألوهية المسيح راداً على ما يدعونه، مبيناً حقيقة المسيح عليه السلام، ومفنداً الشبه التي أثاروها حوله، ومثبتاً وحدانية الله سبحانه وتعالى ومؤكداً على نبوة عيسى عليه السلام.

ومن الملاحظ أن ابن القيم رحمه الله قد سار وفق منهج النقل والعقل في إثبات إبطال دعوى النصارى ألوهية عيسى عليه السلام فقد استخرج من كتبهم النصوص التي تؤكد كذب دعواهم بألوهيته عليه السلام، وكان يحتج أحياناً بآيات من القرآن الكريم ليبين فساد قولهم، كما أنه استخدم العقل والإحساس والفطرة، في وزن أقوالهم وبيان مضاداتها للمعقول، ونراه كذلك عند مناقشته لشبههم يستخدم القياس[1] حيث يقيس معجزات المسيح -التي جعلت النصارى يقولون بأنه إله- بمعجزات غيره من الأنبياء السابقين الذين لم يعتبروا عند أممهم آلهة.

هذه هي المنهجية التي استخدمها ابن القيم في إثبات بشرية المسيح عليه السلام ففي معرض بيانه لحقيقة المسيح -عليه السلام- فإنه رحمه الله يكذبهم بما ورد في كتبهم من أقوال المسيح نفسه ومن ذلك ما نقله رحمه الله عن إنجيل يوحنا قول المسيح: «إن الله ربي وربكم، وإلهي وإلهكم»[2] فشهد على نفسه أنه عبد مربوب مصنوع كما أنهم كذلك، وأنه مثلهم في العبودية والحاجة والفاقة إلى الله تعالى[3].

ومن الأمور التي رد بها ابن القيم على قول النصارى بألوهية عيسى عليه السلام والتي تتعارض مع العقل والإحساس والفطرة ما جاء في هداية الحيارى[4] من قوله

---

(١) القياس: وتعريفه: رد فرع إلى أصل بعلة جامعة هي مناط الحكم، كما عرفه الرازي في المحصول بقوله: «تحصيل حكم الأصل في الفرع لاشتباههما في علة الحكم عند المجتهد» الغزالي، أبوحامد محمّد «الرد الجميل» (ص٩٣)، تحقيق محمّد عبدالله الشرقاوي.

(٢) الإنجيل، يوحنا (٢٠/ ١٧) والنص الذي وجدته هو: «أنا صاعد إلى أبي وأبيكم إلهي وإلهكم».

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٩٢). تحقيق د. الحاج.

(٤) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٩٢). تحقيق د. الحاج.

رحمه الله: «ولقد كان يجب لله سبحانه -لو سبق في حكمته أن يبرز لعباده وينزل عن كرسي عظمته ويباشرهم بنفسه- أن لا يدخل في فرج امرأة ويقيم في بطنها بين البول والدم عدة أشهر، وإذ قد فعل ذلك لا يخرج صبياً صغيراً يرضع ويبكي، وإذ قد فعل ذلك لا يأكل مع الناس ولا يشرب مع الناس ولا ينام معهم، وإذ قد فعل فلا يبول ويتغوط، ويمتنع من الخرأة إذ هي منقصة ابتلى بها الإنسان في هذه الدار لنقصه وحاجته، وهو تعالى المختص بصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال الذي ما وسعته سماواته ولا أرضه، وكرسيه وسع السموات والأرض، فكيف وسعه بطن امرأة -تعالى رب العالمين- وكلكم متفقون على أن المسيح كان يأكل ويشرب ويبول ويتغوط وينام.

وللتدليل على استخدام ابن القيم للقياس في بيان كذب دعواهم بأن المسيح إله رده على أدلتهم التي يستدلون بها على إلهيته عليه السلام ومنها[1]:

● دليلهم الأول: استدلوا على كونه إلهاً بأنه لم يولد من البشر وقولهم لو كان مخلوقاً لكان مولوداً من البشر.

الرد: يبطل ابن القيم هذا الدليل بالقياس حيث يقول: «فإن كان هذا الاستدلال صحيحاً فآدم إله المسيح وهو أحق بأن يكون إلهاً منه لأنه لا أم ولا أب له والمسيح له أم، وحواء أيضاً اجعلوها إلهاً لأنها لا أم لها وهي أعجب من خلق المسيح.

● دليلهم الثاني: كونه إلهاً: أنه أحيا الموتى ولا يحييهم إلا الله.

الرد: ويبطل ابن القيم هذا الدليل بما قاسه على موسى عليه السلام بقوله: «إن قلتم استدللنا على كونه إلهاً بأنه أحيا الموتى، ولا يحييهم إلا الله؛ فاجعلوا موسى إلهاً آخر فإنه أتى من ذلك بشيء لم يأت المسيح بنظيره ولا يقاربه، وهو جعل الخشبة

(١) ذكر ابن القيم في كتابه «هداية الحيارى» (ص٤٩٨-٥٢٢) أكثر من عشرين شبهة وقد رد عليها وأبطلها، ونحن هنا نذكر بعضاً منها للتدليل على طريقة ابن القيم في إبطال دعوى النصارى ألوهية عيسى عليه السلام.

حيواناً عظيماً[1]، وهذا أبلغ وأعجب من إعادة الحياة إلى جسم كانت فيه أولاً، فإن قلتم: هذا غير إحياء الموتى، فهذا اليسع النبي أتى بإحياء الموتى[2] وهم يقرون بذلك، وكذلك إيليا[3] النبي أيضاً أحيا صبياً بإذن الله[4] وهذا موسى قد أحيا بإذن الله السبعين الذين ماتوا من قومه.

• دليلهم الثالث: تكثير الطعام القليل.

الرد: قال ابن القيم: «وإن جعلتموه إلهاً لكونه أطعم من أرغفة يسيرة آلافاً من الناس[5]، فهذا موسى قد أطعم أمته أربعين سنة من المن والسلوى[6]، وهذا محمّد ﷺ ابن عبدالله قد أطعم العسكر كله من زاد يسير جداً حتى شبعوا وملأوا أوعيتهم، وسقاهم كلهم من ماء يسير لا يغمر اليد حتى ملأوا كل سقاء

---

(١) يقصد ابن القيم بذلك معجزة قلب العصاة حية (ثعبان) وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧].

(٢) اليسع وهو اليشع بالعبرية، وقد ورد ذكر إحيائه للموتى في العهد القديم في سفر الملوك حيث وردت قصته مع تلك المرأة الشونمة التي كان يأوي إليها بعد رحلاته وتجواله، فكانت تكرمه وتقدم له الطعام وتخدمه، وذات يوم مات ابنها، فتضرع إلى الله وأعاد الحياة إليه «سفر الملوك الثاني ٤:٨-٣٧» ويزعمون أن وضع جثة في قبر اليشع كفيلة بإعادة الحياة إلى تلك الجثة، ويذكر سفر الملوك الثاني (١٣:٢٠،٢١) أن ذلك قد حدث بالفعل، البار، د. محمّد علي «الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم» (ص٥٢١).

(٣) إيليا: هو نبي الله إلياس عليه السلام، كما في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:١٢٣] ويعتبر من أنبياء بني إسرائيل وقد عاش في القرن التاسع قبل الميلاد. البار، د. محمّد علي «الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم» (ص٥١٤).

(٤) قصة إحياء الصبي موجودة في سفر الملوك الأول (١٧/ ١٧ -٢٤).

(٥) الأرغفة الخمسة وعدد الرجال خمسة آلاف. انظر: يوحنا (٦/ ٩).

(٦) المن والسلوى: جاءت في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:٥٧] والمن: مادة صمغية حلوة كالعسل تسقط على الشجر كما يسقط الطل، و(السلوى) الطائر المعروف بالسماني. الفيروز آبادي «القاموس المحيط» (٤/ ٢٧٢) فصل الميم، باب النون، مادة (من) (ج٤/ م/ ص٣٤٤) فصل السير باب الواو والياء مادة (سلا)، ابن منظور «لسان العرب» (٦/ ٣٥٢)، باب السين، مادة: سلا.

في العسكر، وهذا منقول عنه بالتواتر[1].

(دليلهم الرابع: صعوده إلى السماء.

الرد: يستخدم ابن القيم فيها القياس أيضاً على بطلان استدلالهم حيث يقول:

وإن قلتم إنما جعلناه إلهاً لأنه صعد إلى السماء، فهذا أخنوخ[2] وإلياس[3] قد صعدا إلى السماء وهما حيان مكرمان لم تشكهما شوكة ولا طمع فيهما طامع، والمسلمون مجمعون على أن محمداً ﷺ صعد إلى السماء وهو عبد محض، وهذه الملائكة تصعد إلى السماء، وهذه أرواح المؤمنين تصعد إلى السماء بعد مفارقتها الأبدان ولا تخرج بذلك عن العبودية -ويتساءل ابن القيم باستغراب مبطلاً دعواهم-: وهل كان الصعود إلى السماء مخرجاً من العبودية بوجه من الوجوه؟؟_! وبعد هذا القياس الذي قدمه ابن القيم رحمه الله بين المسيح وغيره من الأنبياء السابقين الذين لم يقل أقوامهم بألوهيتهم رغم عظم معجزاتهم، يبرهن ابن القيم رحمه الله على كلامه هذا بحجج نقلية من ذات أناجيلهم ومن ذلك[4]:

---

(١) مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، «صحيح مسلم». بشرح النووي، (١/ ٢١٧) كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً.

(٢) أخنوخ: هو إدريس عليه السلام. الحاج د. محمّد من كلامه على هامش (ص٥٠٣) من كتاب ابن القيم «هداية الحيارى» وقد بين د. الحاج في هامش هذه الصفحة أن سفر التكوين قد أشار إلى صعود إدريس عليه السلام فيقول: «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» التكوين: (٥/ ٢٤)، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم:٥٦-٥٧] وقد روى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت كما رفع عيسى، وقال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ قال: السماء الرابعة، «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٢٦).

(٣) إلياس: هو الذي يطلق عليه إيليا في التوراة، وقصة صعوده إلى السماء أثناء رحلته مع اليشع ذكرها سفر الملوك الثاني (٢/ ١-١٨)، من كلام د. الحاج في هامش (ص٥٠٣) من كتاب ابن القيم «هداية الحيارى».

(٤) جاءت هذه النصوص عند ابن القيم في كتابه «هداية الحيارى» (ص٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٩).

ما ورد في إنجيل متى: «هذا عبدي الذي اصطفيته وحبيبي الذي ارتاحت نفسي له»[1].

ما ورد في إنجيل متى: «إني أشكرك يا رب السموات والأرض»[2].

ما ورد في إنجيل لوقا: «إن المسيح عرض له ولآخر من تلاميذه في الطريق ملك وهما محزونان فقال لهما وهما لا يعرفانه: ما بالكما محزونين؟ فقال: كأنك غريب في بيت المقدس! إذ كنت لا تعلم ما حدث فيها في هذه الأيام من أمر يسوع الناصري فإنه كان رجلاً نبياً قوياً تقياً في قوله وفعله عند الله وعند الأمة، أخذوه وقتلوه»[3].

ما ورد في غير موضع من الإنجيل مستدلين به على ألوهيته لكونه سمى نفسه ابن الله كقوله: «إني ذاهب إلى أبي»[4] و«إني سائل أبي»[5]، ونحو ذلك من أن ابن الإله إله، قيل: فاجعلوا أنفسكم إله لأنه ورد في الإنجيل أيضاً في غير موضع أنه سماه أباه وأباهم كقوله: «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم»[6] وكقوله: «لا تدعوا أحداً على الأرض يا أبانا لأن لكم أباً واحداً هو الأب السماوي»[7].

وإن قلتم جعلناه إلهاً لقول زكريا في نبوته: «افرحي يا بنت صهيون لأني آتيك وأحل فيك وأتراءى ويؤمن با لله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة ويكونون له شعباً واحداً، ويحل هو فيهم، ويعرفني أني أنا الله القوي الساكن فيك»[8].

---

(١) إنجيل متى (١٢/ ١٨).
(٢) إنجيل متى (١١/ ٢٥).
(٣) إنجيل لوقا (٢٤/ ١٣-٢٧).
(٤) إنجيل يوحنا (١٦/ ١٦).
(٥) إنجيل يوحنا (١٦/ ٢٦).
(٦) إنجيل يوحنا (٢٠/ ١٧).
(٧) إنجيل متى (٢٣/ ٩).
(٨) العهد القديم، زكريا (٢/ ١٠-١٢).

قيل لكم -والرد لابن القيم- «إن وجبت له الإلهية بذلك فتجب لإبراهيم وغيره من الأنبياء فإن عند أهل الكتاب وأنتم معهم «إن الله تجلى على إبراهيم واستعلن له وتراءى له»[1].

وبعد أن بين ابن القيم رحمه الله بطلان استدلالهم على ألوهية المسيح بالأدلة النقلية والمنهج العقلي والقياس المنطقي المعقول المقنع ختم كلامه بقوله: «وجماع الأمر أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية لم تنطق بحرف واحد يقضي أن يكون ابن البشر إلهاً تاماً غير مصنوع ولا مربوب، بل لم يخصه إلا بما خصه به أخوه وأولى الناس به محمّد بن عبدالله ﷺ، في قوله: أنه عبداً لله ورسوله وكلمته[2] ألقاها إلى مريم وروح منه[3]»[4].

المطلب الثاني

مناقشة ابن القيم لطبيعة المسيح عند فرق النصارى

تعتبر شخصية المسيح وطبيعته الأساس والركن الأهم في عقيدة النصارى، فقد دار حول هذه القضية نقاش وجدل قديم، وانعقدت بسببها عدة مجامع ودارت حولها معظم بحوثهم وخلافاتهم.

وما من شك أن عيسى عليه السلام قد عاش بين حوارييه نبياً كغيره من الأنبياء عليهم السلام يأكل ويشرب ويكابد في دعوته، ويكابدون معه، وما عرف هؤلاء

---

(١) التوراة، التكوين (١٧/ ١).

(٢) كلمته: سمّي المسيح عليه السلام كلمة الله لأنه وجد بكلمة الله وأمره من غيرواسطة أب ولا نطفة. ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥١٠)

(٣) روح منه: أي أنه روح مطيعة لله وإضافة الروح لله هنا تعني إضافة مخلوق إلى خالقه وتقتضي التخصيص والتشريف. الطهطاوي، المستشار محمّد عزت، «الميزان في مقارنة الأديان» (ص١٨٢).

(٤) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٠٩).

الحواريين غير ذلك، والأمر في البداية وما رافق حياته عليه السلام لم يكن على النحو الذي نراه ونسمعه اليوم في عقيدة النصارى، ولا على ما عليه عقيدتهم اليوم من تغيرات وإضافات نشأ عنها أفكار فلسفية معقدة.

يقول الأستاذ جينيبير: «وإذا ما توقفنا في نهاية العهد الحواري عند منحدر القرن الأول، وجدنا أنه كان من السهل الميسور على الإنسان أن يعتنق المسيحية وكان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى المصلوب هو المسيح الذي وعد الله به أمته، وبأنه مات من أجل خطاياها، وبأنه سوف يعود في الأجل القريب ليقضي بين الأحياء والأموات، ولينشئ مملكة الله حيث يعيش الصالحون فإذا ما آمن الإنسان به أقيمت له مراسم التعميد[1][2]».

وسرعان ما تبدل الأمر بانقضاء هذا الجيل، فانحرفت النصرانية عن مسارها الذي أوضحه المسيح عليه السلام وسار عليه الحواريون، وبدأت الإضافات في الإيمان تدخل إلى النصرانية، فيجد الذي يعتنق النصرانية نفسه أمام أفكار فلسفية معقدة يصعب عليها هضمها، وأخذت هذه الإضافات كما يقول الأستاذ جينيبير: تنمو وتزداد في تصورات ثلاثة رئيسية للسيد المسيح عليه السلام قابلة للبحث والتنقيب[3].

وهذه التصورات هي:

---

(١) التعميد: فريضة مقدسة يشار فيها بالغسل بالماء باسم الأب والابن والروح القدس إلى تطهير النفس بدم يسوع المسيح من أدران الخطيئة، ولا يكون التعميد إلا إذا اعترفوا بإيمانهم جهاراً أمام كنيسة الله، ولا بد من أن يقوم بعملية التعميد كاهن يعمد الإنسان باسم الأب والابن والروح القدس ويكون التعميد برش الماء على الجبهة أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، ويكون التعميد في أي وقت من الحياة، وكان نهر الأردن المكان الذي عُمد فيه المسيح على يد يوحنا الذي سمي لذلك المعمدان، أبوزهرة، الإمام محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص١٠٥)، وشلبي. د. أحمد «المسيحية» (ص١٨٨).

(٢) جينيبير، شارل «المسيحية نشأتها وتطورها» (ص١٨٨).

(٣) المرجع السابق (ص١٨٩).

١- تصور بولس: وخطوطه الأساسية هي: كان عيسى إنساناً سماوياً أي إنساناً سبقت عناصره الروحية في الوجود وجوده الجسدي، ومبدأ حياته الروح الإلهية نفسها فعيسى هو الروح، وجاء عيسى إلى الأرض لينشئ إنسانية جديدة هو آدمها، يحررها من أثقال الخطايا بقبوله أن يعيش هيئة الإنسان، ويموت ميتة الإثم المشينة، إنه صورة الله الخفية، وهو أول الخلق.. فشخصه إذاً هو المكان الميتافيزيقي الذي يجتمع فيه الله والخليقة.

٢- النظرة اليوحانية: التي تعرف المسيح بـ(اللوغوس) (Logos) ومعناه الكلمة وهذا يبدو لأول وهلة قريباً من عبارة بولس بأن (السيد) هو الروح، ولكنه أكثر عمقاً وميتافيزيقية حيث أن (اللوغوس) وهو فيض الله يمكن في نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله والقول بأن السيد (اللوغس) يكاد يكون مرادفاً للقول بأن السيد هو الله وهذا القول مقبول لدى اليونانيين القائلين بتدرج الآلهة.

٣- التصور الظاهري: بأن السيد لم يكن إنساناً إلا ظاهرياً وهذه المدرسة تحاول بقولها هذا أن تخرج من التلازم المشين بين الكائن الإلهي وبين الجسد وما يصدر عنه.

وبعد أن ذكر لنا جينيير هذه التصورات يعلق عليها قائلاً: «إن هذه النظريات الثلاث في شخص المسيح عيسى عليه السلام تهدف إلى نتيجة واحدة وهي الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله» وتلك عملية عسيرة في حد ذاتها[1].

وفي مقابل هذه التصورات والإضافات نجد -كما يقول جينيير- معارضين لها يقولون ببشرية المسيح ويسلبون عنه كل خصيصة إلهية، وهم القائلون بفكرة التوحيد غير القابل للجدل[2]، وحول طبيعة المسيح عليه السلام فقد ازدادت الاختلافات وتعددت الآراء ورغم قرارات المجامع المتعددة حول هذه القضية إلا أن النصارى لم

(١) جينيير «المسيحية نشأتها وتطورها» (ص١٩١).

(٢) المرجع السابق.

تجتمع كلمتهم على قول واحد فيها.

وسأبين هنا طبيعة المسيح عند فرق النصارى مبيناً مناقشة ابن القيم رحمه الله لهذه القضية، والذي تناول الحديث فيها عن فرقة الآريوسيين التي نادت بالتوحيد وعن ثلاث فرق أخرى أخرجت المسيح من دائرة البشرية إلى دائرة الإلهية. وسأقتصر على الفرق المشهورة التي تناولها ابن القيم رحمه الله حيث يرى أن أكبر فرقهم وأشهرها أربعة وهم:

اليعقوبية والملكية والنسطورية والأريوسية، وقد تفرقت في أصل دينها وذهبت كل فرقة منهم إلى رأي مخالف للآخر في طبيعة المسيح عليه السلام.

الفرقة الأولى: اليعقوبية[1]:

وهم -كما يعرفهم ابن القيم- أتباع يعقوب البرادعي، ولقب بذلك لأن لباسه كان من خروق برادع الدواب يرقع بعضها على بعض ويلبسها.

ويرى ابن القيم أنهم يذهبون إلى أن للمسيح طبيعتين:

إحداهما: طبيعة الناسوت، والأخرى: طبيعة اللاهوت، وإن هاتين الطبيعتين تركبتا فصارتا إنساناً واحداً وجوهراً واحداً وشخصاً واحداً، وهذا الشخص الواحد هو المسيح وهو إله كله، وإنسان كله.

وقالوا: إن مريم ولدت الله، وإن الله سبحانه وتعالى قبض عليه، وصلب وسمر، ومات ودفن، ثم عاش بعد ذلك[2].

---

(١) اليعقوبية: سميت بذلك نسبة إلى يعقوب البرادعي لأنه من أنشط الدعاة إليها لا لأنه مؤسسها لأن أول من أنشأ مذهبها وأعلنه بطريق الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، أما يعقوب فقد وجد في القرن السادس الميلادي واستطاع أن يرتب هذه الفرقة بعد أن كادت تتلاشى. أبوزهرة الإمام محمّد «محاضرات في النصرانية» (ص١٤٦).

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٤).

وابن القيم هنا يوافق ما كتبه أبوالفتح الشهرستاني المتوفي (٥٤٨هـ) عن رأي اليعقوبية في طبيعة المسيح من أنه جوهر واحد (أقنوم واحد) إلا أنه من جوهرين (جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث) تركبا فصارا جوهراً واحداً، ويذكر الشهرستاني رأيهم في أن القتل وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين (جوهر الإله القديم، وجوهر الإنسان المحدث)[١].

ولقد جاء مجمع خلقدونية سنة (٤٥١م)[٢] مخالفاً لآراء هذه الفرقة كما ذكرنا ذلك آنفاً أثناء حديثنا عن المجامع وكان هذا المجمع السبب في الانفصال التام بين الكنيسة الشرقية (بزعامة الكنيسة المصرية القبطية) وبين الكنيسة الغربية (بزعامة كنيسة روما)[٣]. وتعتبر الكنيسة الأرثوذكسية اليوم امتداداً في رأيها لما ذهبت إليه هذه الفرقة.

الفرقة الثانية:الملكية[٤]:

وهم -كما يقول ابن القيم- الروم نسبة إلى دين الملك لا إلى رجل يدعى ملكاياً وهو صاحب مقالتهم.

ويبين ابن القيم رحمه الله رأي هذه الفرقة في طبيعة المسيح حيث يقولون: «إن الابن الأزلي الذي هو الكلمة تجسدت من مريم تجسداً كاملاً كسائر أجساد الناس،

---

(١) الشهرستاني، محمّد بن عبدالكريم، «الملل والنحل» (١/ ٢٧١).

(٢) مجمع خلقدونية سنة (٤٥١م): وهو المجمع السادس الذي سبق أن تحدثنا عنه ضمن عرض ابن القيم للمجامع العشرة.

(٣) ابن القيم، «هداية الحيارى» (ص٥٦٦)، تحقيق د. الحاج.

(٤) الملكية، أو الملكانية كما تسميها بعض المراجع، أو الملكائية -كما يسميها الشهرستاني- في «الملل والنحل» (١/ ٢٦٦)، وسميت بذلك نسبة إلى الملوك لأنها كما قال ابن حزم رحمه الله: «مذهب جميع ملوك النصارى وأهل ممالكهم حيث كانوا حاشا الحبشة والنوبة. ابن حزم، علي بن أحمد «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ١١٠-١١١)، والكاثوليكية اليوم امتداد لهذه الفرقة. ابن القيم «هداية الحيارى» (٥٣٤). من كلام المحقق في الهامش الدكتور محمّد الحاج.

وركبت في ذلك الجسد نفس كاملة بالعقل والمعرفة والعلم كسائر أنفس الناس، وأنه صار إنساناً بالجسد والنفس اللذين هما من جوهر الناس إلهاً بجوهر اللاهوت كمثل أبيه لم يزل وهو إنسان بجوهر الناس كمثل إبراهيم وموسى وداود وهو شخص واحد لم يزد عدده وثبت له جوهر اللاهوت كما لم يزل، وصح له جوهر الناسوت الذي لبسه ابن مريم وهو شخص واحد لم يزد عدده، وطبيعتان لكل واحد من الطبيعتين مشيئة كاملة، فله باللاهوتية مشيئة مثل الأب، وله بناسوتيته مشيئة كمشيئة إبراهيم وداود.

وقالوا: إن مريم ولدت المسيح وهو اسم يجمع اللاهوت والناسوت، وقالوا: إن الذي مات هو الذي ولدته مريم، وهو الذي وقع عليه الصلب والتسمير، والصفع والربط بالحبال، واللاهوت لم يمت ولم يألم ولم يدفن. وقالوا أيضاً: وهو إله قام بجوهر لاهوته، وإنسان قام بجوهر ناسوته، وله المشيئتان: مشيئة اللاهوت، ومشيئة الناسوت، فأتوا بمثل ما أتى به اليعقوبية من أن مريم بزعمهم ولدت الإله إلا أنهم بزعمهم نزهوا الإله عن الموت[(١)].

وابن القيم هنا يوافق ما كتبه ابن حزم المتوفي سنة (٤٥٦هـ) عن رأي الملكانية في طبيعة المسيح حيث قالوا: «بأن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب وابن وروح قدس كلها لم تزل، وأن عيسى عليه السلام إله تام وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر، وأن الإنسان منه، وهو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله شيء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان وأنهما معاً شيء واحد ابن الله»[(٢)].

ويفهم من كلام ابن حزم رحمه الله أن الملكانية تقول بأن للمسيح عليه السلام طبيعتين لاهوتية وناسوتية، هو أيضاً ما نفهمه من كلام ابن القيم رحمه الله الذي أكد أن المتدبر لقول الملكية يجده في الحقيقة قول اليعقوبية[(٣)].

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٤-٥٣٥) تحقيق د. الحاج.

(٢) ابن حزم، علي بن أحمد «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١/ ١١١).

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٥)، تحقيق د. الحاج.

فرغم اختلاف الفرقتين[1] حول طبيعة المسيح عليه السلام إلا أنهما تتفقان على القول بألوهيته، وتتفقان على أن الكلمة اتحدت بالمسيح مع اختلافهما في كيفية الإتحاد، فهو اتحاد تمازج عند الملكانية، واتحاد استحالة وانقلاب عند اليعقوبية بحيث انقلبت الكلمة لحماً ودماً عندهم ومن هنا كان كفرهم -أي كفر اليعقوبية- أقطع كما أشار إلى ذلك ابن القيم رحمه الله[2].

الفرقة الثالثة: النسطورية[3]:

وقد ذهبوا إلى القول بأن المسيح شخصان وطبيعتان لهما مشيئة واحدة، وأن طبيعة اللاهوت لما وجدت بالناسوت صار لهما إرادة واحدة واللاهوت لا يقبل زيادة ولا نقصاناً ولا يمتزج بشيء والناسوت يقبل بالزيادة والنقصان، وكان المسيح بذلك إلهاً إنساناً[4].

---

(١) الفرقتين هما: (الملكانية) التي تقول بالطبيعتين اللاهوتية والناسوتية فالمسيح عندهم إله تام وإنسان تام، وتتبعها الكاثوليكية التي يعتقد أتباعها أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون: الأب والابن والروح القدس. أما الفرقة الثانية فهي (اليعقوبية) التي تقول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للسيد المسيح، وتتبعها الكنيسة الأرثوذكسية التي تعتقد أن الله ذات واحدة مثلث الأقانيم وأن الأقنوم الثاني طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة. أبوزهرة، الإمام محمد «محاضرات في النصرانية» (ص١٤٦)، وطعيمة، د. صابر «الأسفار المقدسة» (ص٢٣٢).

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٥)، تحقيق د. الحاج.

(٣) النسطورية: وهم أصحاب نسطور الذي كان أسقفاً للقسطنطينية ونادى بانفصال الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وقد حضر مجمع إفسس الأول سنة (٤٣١م) إلا أن المجمع حرمه وطرده وقد بينا ذلك سابقاً أثناء حديثنا عن المجمع الرابع، ويبدو أن الشهرستاني قد جانب الصواب عندما قال: النسطورية: أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه «الملل والنحل» (١/ ٢٦٨) وتبعه في هذا الرأي د. صابر طعيمة في كتابه «الأسفار المقدسة» (ص٢٣٠) دون أن يمحص مقالة الشهرستاني حيث أن التناقض فيها واضح ذلك أن المأمون توفي سنة (٢١٨هـ) بينما نسطور حضر مجمع إفسس الأول سنة (٤٣١م) والفرق بين التاريخين حوالي أربعمائة سنة ذلك أن سنة (٢١٨هـ) توافق سنة (٨٣٣م).

(٤) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٦).

وهذه الفرقة هي التي قالت بأن مريم ولدت المسيح بناسوته، وأن اللاهوت لم يفارقه قط[1].

وكأنهم يقولون بأن اللاهوت تقمصه بعد مولده.

ومن الملاحظ أن ابن القيم رحمه الله قد وافق شيخه ابن تيمية عند تناوله لهذه الفرقة كما أنه وافق ما كتبه ابن حزم والشهرستاني عن رأي هذه الفرقة في طبيعة المسيح عليه السلام[2].

ويعقب ابن القيم -بعد أن تناول هذه الفرق الثلاث مبيناً ما تعتقده كل واحدة في طبيعة المسيح- أنها جميعها قد استنكفت أن يكون المسيح عبداً لله، وهو لم يستنكف من ذلك، كما أنها رغبت به عن العبودية لله، وهو لم يرغب عنها، مؤكداً رحمه الله أن أعلى منازله عليه السلام عبوديته لله، وأن محمّد ﷺ وإبراهيم -عليه السلام- خيرٌ منه وأعلى منازلهما تكميل مراتب العبودية لله تعالى، وينهي تعقيبه قائلاً ويا فوزه من رضيه أن يكون له عبداً، فلم ترضى المثلثة بذلك[3].

الفرقة الرابعة: الآريوسية[4]:

وذكر ابن القيم أنهم قالوا أن المسيح عبدا لله كسائر الأنبياء والرسل وهو مربوب مخلوق مصنوع -يقول ابن القيم- «وكان النجاشي على هذا المذهب وإذا ظفرت

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٦).

(٢) وقد تناول ابن تيمية الحديث عن هذه الفرقة في «الجواب الصحيح» (٣/ ٣٦)، وابن حزم في «الفصل» (١/ ١١١)، والشهرستاني في «الملل» (١/ ٢٦٩).

(٣) ابن القيم، هداية الحيارى (ص٥٣٦).

(٤) الآريوسية: نسبة إلى آريوس الذي ولد في ليبيا القيروان سنة (٢٧٠م)، ودخل في شبابه المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية، ثم رسمه البابا (بطرس) بطريق الإسكندرية شماساً سنة (٣٠٧م) ثم قساً وواعظاً وكان ذكياً فصيحاً. ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٦)، من كلام المحقق د. محمّد الحاج في الهامش نقلاً عن «تاريخ الأقباط» (١/ ١٥٠) لزكي شنودة.

المثلثة بواحد من هؤلاء قتلوه شر قتلة وفعلوا به ما يفعل لمن سب المسيح وشتمه أعظم سب»[1].

وبعد أن عرض ابن القيم رحمه الله أقوال فرق النصارى في المسيح قام بالرد عليهم مبطلاً أقوالهم بطريقة عقلية من خلال مخاطبته لأصحاب العقول مبيناً هراء قولهم، ومستخدماً الأدلة النقلية من القرآن الكريم على فساد قولهم ومثبتاً تصديق نبينا محمّد ﷺ لنبوة عيسى ومعجزاته ثم تراه رحمه الله يوازن بين ما جاء به الإسلام وبين قول عباد الصليب ليثبت بطلان ادعائهم فهو يقول: «وكل من تلك الفرق الثلاث[2] عوامهم لا يفهم مقالة خواصهم على حقيقتها، ولا يعرفون تلك الهذيانات التي وضعها خواصهم، وهم يصرحون بأن مريم والدة الإله، والله أبوه، وهو الابن، فهذا الزوج والزوجة والولد، ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً[3] * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾[4] [مريم:٨٨-٩٥].

ثم بين ابن القيم رحمه الله عقيدة المسلمين في المسيح عليه السلام والتي تؤكد براءة المسيح وأمه مما افتراه اليهود وعباد الصليب المثلثة -كما يصفهم ابن القيم- الذي سبوه أعظم السب، وبين أيضاً ما أنزله محمّد ﷺ أخاه المسيح، وهي المنزلة التي أنزله الله بها وهي أشرف منازله فآمن به وصدقه وشهد له بالعبودية والنبوة وقرر معجزاته

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٦)، تحقيق د. الحاج.
(٢) اليعقوبية، والملكية (الملكانية)، والنسطورية.
(٣) إدا: أي أمراً عظيماً. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٣٨).
(٤) وأورد هذه الآيات ابن القيم في هداية الحيارى (ص٥٣٧).

وآياته وأخبر عن ربه بتخليد من كفر بالمسيح في النار، قال تعالى: ﴿يَـأَهْلَ الْكِتَـابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْـنُ مَرْيَـمَ رَسُـولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُـواْ ثَلاَثَـةٌ انتَهُـواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ وما فِي السَّمَاوَات وَمَـا فِـي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَـةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعـاً * فَأَمَّـا الَّذِيـنَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِيـنَ اسْـتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابـاً أَلُيمـاً وَلاَ يَجِـدُونَ لَهُـمْ مِّـن دُونِ اللهِ وَلِيّـاً وَلاَ نَصِـيراً﴾ [النساء:١٧١-١٧٣] ثم قال ابن القيم رحمه الله: «بمنهج الموازنة» فإذا وضع هذا القول - أي عقيدة المسلمين وشهادة محمّد ﷺ- في المسيح في كفة وقول عباد الصليب المثلثة في كفة تبين لكل من له أدنى مسكة من عقل، مـا بينهمـا مـن التفـاوت، وأن تفاوتهمـا كتفاوت ما بينه وبين قول المغضوب عليهم فيه[١].

المطلب الثالث

طريقة ابن القيم في إثبات نبوة عيسى عليه السلام

إن الحديث هنا عن طريقة ابن القيم في إثبات نبوة عيسى عليه السلام جاء مناسـباً للرد على النصارى الذين قالوا بألوهيته وأنكروا نبوته، واستنكفوا أن يكـون المسـيح

(١) المقصود بالمغضوب عليهم هم اليهود وأما الضالون فهم النصارى وكثيراً ما يستخدم ابـن القيـم هذيـن الوصفين على اليهود والنصارى حيث أنه رحمه الله يستدل على ذلك بما ثبت عـن النبي ﷺ وذكـره ابـن القيم في «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٧٧) من قوله عليه الصلاة والسلام: «اليهود مغضوب عليهم والنصـارى ضالون» أخرجه الترمذي بلفظ ضلال بدل ضالون في سننه «الجامع الصحيح» (٥/ ٢٠٤)، كتاب (تفسير القرآن)، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، حديث رقم (٢٩٥٣). وهو جزء من حديث طويل، رواه عـدي بن حاتم ﷺ، وقال الترمذي حديث حسن غريب كما ورد الحديث عنده برقم (٢٩٥٤).

عبد الله وصرحوا بالكفر والشرك جهراً.

وإذا استقرأنا منهج ابن القيم وطريقته في إثبات نبوة عيسى عليه السلام فإنا نجده يعتمد على العقل في البرهنة على كذب النصارى في قولهم بألوهيته وعدم نبوته وأيضاً ما اعتمد به على قياس معجزاته بمعجزات الأنبياء عليهم السلام، وسنكتفي للتدليل على منهج القياس هذا بما ذكرناه سابقاً في معرض حديثنا عن رد ابن القيم على دعواهم بألوهية عيسى عليه السلام.

كما نجده رحمه الله يستخدم الطريق النقلي حيث أورد أدلة من القرآن الكريم توضح إخبار الله سبحانه وتعالى بنبوة المسيح واعتراف سيدنا عيسى عليه السلام بنبوته، وكذلك استدلاله رحمه الله من ذات نصوص أناجيلهم بما يؤيد بنبوة عيسى وبشريته عليه السلام.

فمن الأدلة العقلية التي استخدمها ابن القيم في بيان كذب النصارى حين قالوا بالاتحاد -أي أن عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال هذه الخرقة من هذا الثوب- حيث رد عليهم ابن القيم مبيناً أن الكلمة التي ألقاها الله إلى مريم حين قال له كن، فكان عيسى بكن وليس عيسى هو كن، وإنما سمي كلمة الله لأنه وُجِد بكلمته وأمره من غير واسطة أب[1]، ثم إن (روح الله) لا تدل على أنها صفته فضلاً أن يكون هو الله، وجبريل يسمى روح الله، والمسيح اسمه روح الله.

ثم يقول: والمضاف إلى الله إذا كان ذاته قائمة بنفسها فهو إضافة مملوك إلى مالك، كبيت الله، وناقة الله وروح الله فليس المراد به بيتاً يسكنه ولا ناقة يركبها، ولا روحاً قائمة به[2].

وعن حلول الله واتحاده في مخلوق من مخلوقاته قول ابن القيم: «وأما الظهور

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥١٠)، تحقيق د. الحاج.

(٢) المرجع السابق، (ص٥١٥).

المستحيل الذي تأباه العقول والفطر والشرائع وجميع النبوات، وهو ظهور ذات الرب في ناسوت مخلوق من مخلوقاته واتحاده به وامتزاجه واختلاطه فهذا محال عقلاً وشرعاً»[1] وبين ابن القيم أن الظهور المعقول هو ظهور محبة الله ومعرفته ودينه، وهذا لا فرق فيه بين ناسوت المسيح وناسوت سائر الأنبياء والمرسلين[2].

ويصل ابن القيم إلى إثبات نبوة المسيح بما حاج به النصارى بطريق عقلي من أنهم لم يأتوا بأدلة على ألوهيته سوى تكذيبه علماً بأن أناجيلهم تشهد له بالعبودية حيث ذكر في هذا المعنى قائلاً: «وإن كان المسيح إنما ادعى أنه عبد ونبي ورسول كما شهدت به الأناجيل كلها ودل عليه العقل والفطرة وشهدتم أنتم له بالألوهية -وهذا هو الواقع- فلم تأتوا على إلهيته ببينة غير تكذيبه في دعواه، وقد ذكرتم عنه في أناجيلكم في مواضع عديدة ما يصرح بعبوديته وأنه مربوب مخلوق، وأنه ابن البشر، وأنه لم يدع غير النبوة والرسالة فكذبتموه في ذلك كله وصدقتم من كذب على الله وعليه»[3].

ومما استدل به ابن القيم وفق المنهج النقلي من خلال اعتماده على أدلة من القرآن الكريم أو حتى من نصوص أناجيلهم بما يشهد على كذبهم وافترائهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء:١٥٦،١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٧١] ومما استشهد به ابن القيم على نبوة عيسى قول الله تعالى: ﴿يعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٢٢).
(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٢٢).
(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٠١).

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٦،١١٧] وقد شهد المسيح على نفسه أنه عبد مربوب مصنوع كما أنهم كذلك حيث نقل ابن القيم قول المسيح لهم في إنجيل يوحنا: «إن الله ربي وربكم، وإلهي وإلهكم»[١].

كما أن المسيح شهد أنه رسول الله إلى خلقه كما أرسل الأنبياء قبله ففي إنجيل يوحنا أن المسيح قال في دعائه: «إن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك الله الواحد الحق، وأنت أرسلت يوشع المسيح»[٢].

يقول ابن القيم: «وهذه حقيقة شهادة المسلمين أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وأيضاً من النصوص التي استعرضها ابن القيم مستشهداً بها على نبوة عيسى من نفس كتبهم المقدسة عندهم، وهو مما يظهر مقدرة ابن القيم في الاستدلال ومن هذه النصوص[٣]:

- ما ورد في إنجيل يوحنا قول المسيح لبني إسرائيل: «تريدون قتلي وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقول»[٤] فذكر غايته أنه رجل بلغهم ما قاله الله ولم يقل: أنا إله ولا ابن إله.

---

(١) إنجيل يوحنا (١٧/ ٢٠) وذكره ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٤٩٢) تحقيق د. الحاج.

(٢) إنجيل يوحنا (١٧/ ٣) وذكره ابن القيم في المرجع السابق.

(٣) ذكر ابن القيم هذه النصوص في كتابه «هداية الحيارى» (ص٤٩٢-٤٩٧)، تحقيق د. الحاج.

(٤) إنجيل يوحنا (٨/ ٤٠).

وقال: «إني لم أجئ لأعمل بمشيئة نفسي ولكن بمشيئة من أرسلني»[1].

• وقال: «إن الكلام الذي تسمعونه مني ليس هو لي ولكن للذي أرسلني والويل لي إن قلت شيئاً من تلقاء نفسي ولكن بمشيئة من أرسلني»[2].

ويذكر ابن القيم أنه كان يواصل العبادة من الصلاة والصوم ويقول: «ما جئت لأُخدَم بل جئت لأَخدِم»[3] فأنزل نفسه بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي منزلة الخدام لله.

• وقال: «لست أدين العباد بأعمالهم ولا أحاسبهم بأعمالهم ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم»[4].

• وقول المسيح أيضاً: «يا رب قد علموا أنك قد أرسلتني وقد ذكرت لهم اسمك»[5] فأخبر أن الله ربُّه وأنه عبده ورسوله.

• وقوله: «إن الله مسحني وأرسلني وإنما أعبد الله الواحد ليوم الخلاص»[6].

وقال: «إن الله عز وجل ما أكل ولا يأكل وما شرب ولا يشرب ولم ينم ولا ينام وما وُلد ولا يلد وما رآه أحد إلا مات»[7].

---

(١) إنجيل يوحنا (٥/ ٣٠).

(٢) إنجيل يوحنا (٧/ ١٦-١٧).

(٣) إنجيل متى (٢٣/ ١١) بلفظ «وليكن أكبركم خادماً لكم».

(٤) إنجيل يوحنا (٥/ ٣٠).

(٥) إنجيل يوحنا (١٧/ ٤-٦).

(٦) في إنجيل لوقا: «روح الرب علي لأنه مسحني أبشر المساكين، أرسلني لأشفي منكسري القلوب» إنجيل لوقا (٤/ ١٨) هكذا ذكره، د. الحاج على هامش (ص٤٩٣) من كتاب ابن القيم «هداية الحيارى».

(٧) قال د. الحاج في هامش (ص٤٩٤)، من كتاب «هداية الحيارى» إن هذا النص لا نجده متكاملاً في مكان واحد بل نجده مبثوثاً في أماكن مختلفة من العهدين القديم والجديد. في إنجيل يوحنا (١/ ١٨) «الله لم يره أحد قط».

يقول ابن القيم: وبهذا يظهر لك سر قوله تعالى في القرآن العظيم: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة:٥٧].

• وفي إنجيل يوحنا أن المسيح أعلى صوته في البيت وقال لليهود «قد عرفتموني ولم آت من ذاتي وقد بعثني الحق وأنتم تجهلونه، فإن قلت إني أجهله كنت كاذباً مثلكم وأنا أعلم أني منه وهو بعثني»[1].

ويعلق ابن القيم على هذا قائلاً: «فما زاد في دعواه على ما ادعاه الأنبياء فأمسكت المثلثة قوله: (إني منه) وقالوا إله حق من إله حق، وفي القرآن: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللهِ﴾ [البينة:٢] وقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٧].

• وفي الإنجيل أيضاً أنه قال لليهود وقد قالوا له: «نحن أبناء الله» فقال: «لوكان الله أباكم لأطعتموني لأني رسول منه.. هو بعثني ولكنكم لا تقبلون وصيتي وتعجزون عن سماع كلامي إنما أنتم أبناء الشيطان وتريدون إتمام شهواته»[2].

وقال في دعائه لما سأل ربه أن يحيي الميت: «أنا أشكرك وأحمدك لأنك تجيب دعائي في هذا الوقت وفي كل وقت فأسألك أن تحيي هذا الميت لتعلم بنو إسرائيل أنك أرسلتني وأنك تجيب دعائي»[3] فهو يشكر الله تعالى لأنه هو الذي مكنه من فعل تلك المعجزة وإلا فهو بشر لا يستطيع لها فعلاً لولا مشيئة الله تعالى، وقد فعل هذه المعجزة ليؤمن قومه أنه رسول من عند الله وهذه هي فائدة المعجزة التي تجري على يد رسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام.

هذه بعض النصوص الإنجيلية التي ذكرها ابن القيم كأدلة تشهد بأن عيسى عليه

---

(١) إنجيل يوحنا (٧/ ٢٨-٢٩).

(٢) إنجيل يوحنا (٨/ ٤١-٤٤).

(٣) إنجيل يوحنا (١١/ ٤١-٤٣).

السلام عبدالله وأحد رسله وأنه بشر كغيره من الأنبياء والمرسلين.

وإن المطلع على الكتاب المقدس عندهم ليَجدِ هذه النصوص وغيرها منشورة بين ثناياه رغم التحريف والتبديل الذي لقيه هذا الكتاب.

ومن خلال هذا العرض الذي ساقه لنا ابن القيم يتضح أنه رحمه الله كان يسير في منهجه وفق ما يسترشده من آيات القرآن الكريم وما يستخدمه من نصوصهم التي في كتبهم إلى جانب الطريق العقلي حيث يقول: «والمسيح الذي أثبته النصارى من أبطل الباطل لا يمكن وجوده في عقل ولا فطرة، ويستحيل أن يدخل في الوجود أعظم استحالة ولو أمكن وجوده لبطلت أدلة العقول، ولم يبق لأحد ثقة بمعقول أصلاً، فإن استحالة وجوده فوق استحالة جميع المحالات، ولو صح ما يقولون لبطل العالم واضمحلت السموات والأرض وعدمت الملائكة والعرش والكرسي، ولم يكن بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار»[1].

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٣٨). تحقيق د. الحاج.

المبحث الثالث
الأناجيل ومصداقيتها

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول
الأناجيل وظروف كتابتها

يعتقد النصارى: بأن الأناجيل[1] هي الأقوال والأمثال التي كان يدلي بها عيسى لأتباعه من الحواريين مدة حياته، وهم يضيفون إلى ما سبق الأحداث التي أحاطت بعيسى وحوارييه

---

(١) الأناجيل: والمقصود بها كما يقول ابن القيم أربعة أناجيل أخذت عن أربعة نفر، اثنان منهم لم يريا المسيح أصلاً وهما مرقس ولوقا واثنان رأياه واجتمعا به وهما متى ويوحنا وكل منهما يزيد وينقص. (ابن القيم «هداية الحيارى» ص٤٢٦) وهذه الأناجيل هي المقصودة بكلمة الإنجيل عند المسيحيين الآن، الإنجيل كتاب الله المنزل على رسوله عيسى عليه السلام، والمسلمون يؤمنون بالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام لأنه من جنس الكتب التي أمر الله المسلمين أن يؤمنوا بها، ثم إن عدم الإيمان بالإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام يعني إنكار آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن الإنجيل، ومن أنكر شيئاً من القرآن الكريم كان كافراً، إلا أنه وبعد رفع المسيح ضاع الإنجيل الرباني، وكتبت بعد ذلك أناجيل كثيرة زادت على المائة، فاختارت الكنيسة منها أربعة هي: (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا) وأصبحت كلمة الإنجيل تطلق عليها وعلى الرسائل الملحقة بها وهو ما يسمى أيضاً بالعهد الجديد أما اسم (الكتاب المقدس) فيطلقه المسيحيون على العهدين القديم والجديد، والإنجيل ليس فيه تشريعات وأحكام؛ لأن عيسى عليه السلام كان يعمل بشريعة التوراة، وقد ورد لفظ الإنجيل في القرآن الكريم في اثنتي عشرة آية كريمة في السور التالية: آل عمران في الآيات ٣،٤٨،٦٥ والمائدة في الآيات ٤٦،٤٧،٦٦،٦٨،١١٠، والأعراف في الآية ١٥٧، والتوبة في الآية ١١١، والفتح في الآية ١٢٩، والحديد في الآية ٢٧، (ابن القيم «هداية الحيارى ص٤٢٦) وشتيوي محمّد شلبي، «الإنجيل دراسة وتحليل» (ص٩)، وغربال، شفيق «الموسوعة الميسرة» (ص٢٣٩)، وبوست «قاموس الكتاب المقدس» (ص١٢٠)، وحاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله «كشف الظنون» (١/ ١٧٥)، والهندي، رحمت الله «إظهار الحق» (١/ ١٠٣)، من كلامي المؤلف والمحقق د. الملكاوي.

في ذلك الزمان، كما أنهم يعتقدون أن أصل الإنجيل موجود في تنبؤات العهد القديم عند اليهود، ويتمثل ذلك في العبارات الموجودة في تلك الأسفار التي تتحدث عن مجيء المخلص والمنقذ والفادي[1]، ويؤكد ابن القيم رحمه الله أن اليهود لا ينكرون مجيء هذا المخلص، فهم يؤمنون بأن قائماً من ولد داود النبي يقوم فيهم وهذا القائم هو المسيح المنتظر[2]، وأنه سيأتي ويخلص الشعوب وبيت المقدس. ويخلص من آمن به[3]، كما أن النصارى يعتقدون بأن مؤلفي الأناجيل وما أضيف إليها من رسائل معصومون من الخطأ، لأنهم كتبوا مؤلفاتهم بوحي من الروح القدس وهنا تذكر الدكتورة عزية طه ما قاله إدوارد بونج بأن أسفار الكتاب المقدس كتبها كتاب مختلفون -وهم رجال متباينو الثقافة وعاشوا في عصور مختلفة- وأنه ليس هناك تصور آخر يمكن أن يخالج النفس سوى أنهم منقادون بروح الله عندما كتبوها[4]، وتتابع د. عزية مقالة إدوارد بونج من أن الكتاب البشريون ليسوا إلا مجرد حملة أقلام يتحركون تحت قيادة الروح القدس[5]، ويعتبر النصارى أن الأناجيل التي جمعها المؤلفون كتابٌ سماويٌ مقدسٌ صادرٌ من الله حيث تذكر د. عزية طه أن النصارى يعتبرون الإنجيل هو ما أملاه الله بالإلهام على هؤلاء المؤلفين المؤيدين بروح القدس، -وتتابع- من أن النصارى يظنون أن هؤلاء المؤلفين من حواريي عيسى بن مريم عليه السلام، وهم (أي النصارى) لم يقصروا تأييد روح القدس على الحواريين فقط، بل ظهر في تاريخهم أن تأييد روح القدس قد شمل غيرهم من أصحاب المجامع المختلفة، حتى بابوات الكنائس في عصرنا الحاضر، مما يبيح لهم أن يبدلوا ويعدلوا ويطوروا في الكتاب المقدس حسب

---

(١) طه، د. عزية، «التثبت في قبول الأخبار» مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية (ص١٠٧)، العدد الخامس عشر، السنة السادسة.

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٢٣)، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٣٠٩).

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٠٧)، والنص بهذا المعنى موجود في العهد القديم، أشعيا (٦٢/ ١١-١٢).

(٤) عن مقالة نشرتها د. عزية طه في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية (ص١٠٧) بعنوان «التثبت في قبول الأخبار».

(٥) المرجع السابق.

أهوائهم[1]. ويؤكد ابن القيم رحمه الله أن النصارى يعتقدون بأن المسيح أوصى أصحابه بأن يوصوا الناس بما وصاهم به، وأن من ينقض شيئاً من ذلك يدعى ناقضاً في ملكوت السماء[2] فالنصارى هنا يبررون ما قام به تلامذة المسيح -على حد زعمهم- من كتابة هذه الأناجيل بكامل الأمانة والصدق ونحن كمسلمين لا نؤيد بأن هذه الأناجيل التي بين أيدينا قد كتبت بوحي وإلهام من الله لأنها لوكانت كذلك لكانت خالية من الأغاليط والتضارب والتناقض والزيادة والنقص لأن الوحي لا يخطئ والرسول الحق لا يكذب، فهذا عالمهم (ول ديورانت) يقول: «إن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر»[3]. ويقول أيضاً عن النسخ الأصلية بأنها تعرضت للخطأ وللتحريف المقصود[4].

وقد تدرج ابن القيم رحمه الله وفق منهج تاريخي[5] بَيَّنَ مِن خلاله الظروف التي مرَّ بها النصارى وكان لها أكبر الأثر في كتابة الأناجيل المعروفة اليوم.

وإذا استعرضنا كل ما كتبه ابن القيم عن هذه الظروف فإنا نستطيع أن نعزوها إلى ثلاثة عوامل:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ول ديورانت «قصة الحضارة» (٣/ ١١٠).

(٣) المرجع السابق (٣/ ١١٠).

(٤) المرجع السابق (٣/ ١٠٧).

(٥) وفق هذا المنهج التاريخي بين ابن القيم زمن وتاريخ كتابة كل إنجيل من الأناجيل الأربعة حيث ذكر أن إنجيل متى كتب في زمن الملك قلوديوس، وقوله أيضاً ثم جاء ملك آخر -قال ابن البطريق أنه نارون بن قلوديوس- وفي عصره كتب بطرس رئيس الحواريين إنجيل مرقس، وفي عصره كتب لوقا إنجيله ثم بين أنه في عصر طرابيانوس كتب يوحنا إنجيله (ابن القيم «هداية الحيارى» ص٥٤٠-٥٤٣) ومن الملاحظ أن هؤلاء الملوك كلهم من قياصرة الرومان، وإذا رجعنا إلى تاريخ حكم كل ملك منهم فإنا سنقف على التاريخ الذي كتبت فيه تلك الأناجيل، وإن ابن القيم نفسه قد اعتمد على تاريخ ابن البطريق المسمى بـ «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» تأليف البطريرك افتيشيوس المكنى بسعيد ابن البطريق، ويذكر الدكتور محمّد أحمد الحاج أن ابن القيم قد اشترك مع ابن تيمية في «الجواب الصحيح» بالنقل عن هذا الكتاب، ويظهر أن ابن القيم قد اختصر ما نقله ابن تيمية عن ابن البطريق. (من كلام د. الحاج على (ص١٣٨) من كتاب «هداية الحيارى» بتحقيقه).

العامل الأول: الظروف الاجتماعية:

فقد تحدث ابن القيم رحمه الله عن البيئة الاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك ولعبت دوراً في صياغة عقائد النصارى، مؤكداً رحمه الله أن الدولة الرومانية استطاعت أن تؤثر في صياغة العقيدة النصرانية وأكثر ما تجلى ذلك -كما يذكر ابن القيم- في مجمع نيقية[1] حيث استطاعت الدولة الرومانية أن تسرب العقائد الوثنية إلى الديانة النصرانية، وبهذا نستطيع أن نقول إن البيئة الاجتماعية التي جبل عليها الرومان قد كان لها الأثر الكبير في صياغة عقائدهم، ثم إن ما لاقاه النصارى من أذى واضطهاد ولد عندهم فكرة المسيح الذي سيظهر ويخلصهم من ظلم الرومان.

وقد تحدث ابن القيم رحمه الله عن بولس حيث وصفه بأنه أول من أفسد النصارى وأفسد دينهم[2].

وهنا تذكر د. عزية طه عن بارينز تاتوم قوله: «إن بولس كان يتمتع برهافة الحس. وكان من اليهود المتحررين الذين لا يمانعون من تطوير الديانة اليهودية حسب مقتضيات البيئة والظروف الاجتماعية وذلك من أجل انعاش الديانة المسيحية وتجديدها» وتتابع عزية أيضاً أن بولس أعاد صياغة رسالة السيد المسيح بما يتوافق مع الأفكار الفلسفية والتوجيهات الثقافية التي كانت سائدة في ذلك العصر[3].

ومما يؤكد ما ذهب إليه ابن القيم رحمه الله في اعتبار الظروف الاجتماعية من العوامل التي أثرت في صياغة عقائدهم ما اعترف به علماء اللاهوت في الغرب بأن البيئة الاجتماعية كان لها أثر كبير في تشكيل الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد ومن أمثلة ذلك ما أوردته د. عزية طه، في مقالتها عن هاوارد مارشال -أحد الكتاب

---

(١) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٤٠)، وانظر أيضاً ما قاله المحقق د. الحاج في هامش هذه الصفحة.

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٥٤٨). تحقيق د. الحاج.

(٣) من مقالة نشرتها د. عزية طه في مجلة.

الغربيين- قوله: «إن يوحنا صاحب الإنجيل الرابع كان متأثراً بفكرة «اللوجس» عند اليونان وبفكرة تجسيد الآلهة التي كان يؤمن بها الرومان، لذلك نراه يدخل تلك الأفكار في الديانة المسيحية وهو الذي جعل عيسى أزلياً مع الله ومتحداً فيه»[1].

العامل الثاني: الظروف الدينية:

يذكر ابن القيم رحمه الله أن أصل عقيدة النصارى هو التوحيد الذي تلقاه الحواريون من المسيح عليه السلام، ثم بعد أن رفع الله المسيح تفرق الحواريون في البلاد وهم على دينه ومنهاجه يدعون الأمم من بني إسرائيل إلى توحيد الله ودينه، والإيمان بعبده ورسوله ومسيحه، فدخل كثيرمن الناس في دينه بين ظاهر منشور ومختف مستور، وأعداء الله اليهود -لعنهم الله- في غاية الشدة والأذى لأصحابه وأتباعه مما إدعى إلى القضاء على عدد كبير منهم، وقد تبع ذلك قيام بطارقة النصارى بمخالفة وتغيير بعض الشرائع التي كانت زمن المسيح عليه السلام مثل صلاتهم إلى الشرق في حين أن المسيح عليه السلام ما صلى إلى الشرق قط[2]. وإنما كانت قبلته إلى بيت المقدس وهي قبلة داود والأنبياء قبله، والمسيح حرم الخنزير ولعن آكله والنصارى تتقرب إليه بأكله، والمسيح لم يتخذ من يوم الأحد عيداً قط، كما أنهم عبدوا الصليب، ويؤكد ابن القيم أن النصارى ذهبوا ينقضون شريعة التوراة شريعة شريعة في مكايدة اليهود ومغايظتهم[3]، ومن خلال تعبد النصارى إلى اليوم بهذه الأشياء يتبين لنا أن هذه المعتقدات والشرائع قد كتبها لهم رهبانهم دون أي اعتبار

---

(١) من مقالة نشرتها د. عزية طه.

(٢) يذكر د. محمّد الحاج على هامش (ص٤٨٤) من كتاب ابن القيم «هداية الحيارى» أن صلاتهم إلى الشرق مأخوذة من الوثنية الرومانية ومن عبادة الشمس بالذات التي كانت سائدة آنذاك ويظهر تأثير عبادة الشمس في النصرانية جلياً في أعياد النصارى فهي في معظمها أعياد لها صلة وثيقة بالشمس حتى العيد الأسبوعي وهو يوم الأحد، وهو بالإنجليزية (Sunday) وترجمته الحرفية (يوم الشمس) توضح ذلك.

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» ص ٤٨٧.

لإنجيل المسيح عليه السلام، زاعمين أنه يحق لهم أن يدخلوا فيه ما يرونه مناسباً ويحذفوا منه ما يشاءون، مما أدى إلى انقسام النصارى إلى طوائف وفرق عديدة بين موحد لله، وبين منكر له سبحانه ومؤله للمسيح، مختلفين كذلك في شأن المسيح وطبيعته وصلبه حتى غدوا مختلفي الآراء في صلب دينهم، وقد بين ابن القيم ذلك حين تحدث عن طبيعة المسيح عند فرق النصارى وهو ما تحدثنا عنه في المبحث السابق.

وإن انقسام النصارى إلى طوائف وفرق دينية متعددة أدى إلى احتدام الصراع والنزاع الديني بينهم وتكفير بعضهم بعضاً، ولكي يدعم كل فريق موقفه أصبح يختلق الآيات والنصوص ويضيفها إلى إنجيل خاص به لكي يوضح كل فريق منهم عقيدته للناس، وفي هذا يقول ول ديورانت: «الأناجيل الأربعة التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحين في القرنين الأول والثاني»[1].

ومما لاشك فيه أن هذا الظرف الديني وما صاحبه من تأثر بعقائد الرومان وإجبار الرومان للنصارى أحياناً على عبادة الأصنام -كما حصل في عهد دقيانيوس[2]- واختلاف النصارى وتفرقهم إلى طوائف وفرق بسبب الآراء حول طبيعة المسيح، وعدم صيانة رهبانهم للإنجيل؛ أدى ذلك إلى ضياع عقيدة التوحيد واستبدالها بفكرة الثالوث التي لم تكن مقبولة في بادئ الأمر حتى سنة ٣٢٥م التي انعقد فيها مجمع نيقية، ثم ما تلاه من مجامع رسخت بقراراتها أناجيل ورسائل مختلفة ومشكوك فيها حتى أصبحت هذه الكتب والرسائل من الوثائق المتداولة والمعتمدة بين أيدي النصارى في كل مكان.

---

(١) ول ديورانت «قصة الحضارة» ج١١ (ج٣ من المجلد ٣) ص٢٠٦.

(٢) ابن القيم «هداية الحيارى» ص٥٤٧ تحقيق د.الحاج.

العامل الثالث : الظروف السياسية

وقد تحدث ابن القيم عن الأحوال السياسية التي رافقت حياة النصارى وما لحقهم من أذى شديد على يد الرومان واليهود وما تبع ذلك من فناء لعلمائهم فقد تحدث ابن القيم فيما نقله عن تاريخ ابن البطريق باسهاب عن هذا الموضوع مبيناً أن أناجيل متى ومرقص ولوقا ويوحنا كتبت في ظل تلك الأحداث الدموية، مبيناً رحمه الله ما رافق تلك الأحداث من إجبار الرومان للنصارى على عبادة الأصنام أحياناً وترك دينهم أحياناً أخرى وحرق كتبهم وقتل بطارقتهم وهدم كنائسهم، وإن المتتبع لما كتبه -ابن القيم- يجده يقول وهو يتتبع تلك الفترة العصيبة على النصارى من تتابع الملوك عليهم «ثم هلك وولي بعده ملك آخر وكان شديداً على تلامذة المسيح ثم مات وولي بعده آخر، وفي زمنه كتب متى انجيله..واستمرت القياصرة ملوك الروم على هذه السيرة..ثم قام قيصر آخر فكانت النصارى في زمنه يصلون في المطامير والبيوت فزعاً من الروم... « الخ[1] حتى أن هؤلاء الملوك تدخلوا في إقرار عقائد النصارى عبر تلك المجامع التي كانت تعقد بين الحين والآخر.

فكانت الظروف السياسية ذات أثر واضح في صياغة وكتابة الأناجيل على النحو الذي يرضاه الملوك والأباطرة ويدلنا على ذلك ما حدث في مجمع نيقية عام ٣٢٥م حيث كان أكثر المجتمعين في هذا المجمع مع الرأي القائل بالتوحيد إلا أن سلطة الامبراطور قسطنطين- بحكم موقعه كملك وحاكم- اقرت عقيدة الشرك با لله تعالى وبقوا عليها حتى يومنا هذا ثم كتبت هذه العقيدة ورسخت في أناجيلهم.

وقد تبع هذا المجمع مجامع عديدة وأصبحت ذات سلطة قوية بحيث تعتبر قراراتها أصولاً في الدين المسيحي وقد تلا ذلك أيضاً إعطاء سلطة للبابا بحيث يكون هو صاحب حق في التشريع، وقد لعبت الظروف السياسية في العصر الحاضر دوراً بحيث

(١) المرجع السابق ص٥٤٠-ص٥٦٢.

تم تبرئة اليهود من دم المسيح، وهنا يذكر د. الحاج أن الكتب البروتستانتية تكاد تخلو من العبارات العدائية المحقرة لليهود»[1].

وهذا يؤكد لنا أن الظروف السياسية ما زالت حتى يومنا ذات أثر بالغ في كتابة الأناجيل، وأخيراً فإن الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام هو إنجيل صحيح نؤمن به ونصدقه، إلا أن النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام قصروا في حمله وحفظه لتلك الظروف التي تحدثنا عنها وكان منها ما هو خارج عن إرادتهم ومنها ما كانوا هم السبب فيها فضاعت النسخة الأصلية ولعل في ذلك حكمة لله سبحانه لا يعلمها إلا هو، وقد كان بعد ذلك القرآن الكريم خاتماً للشرائع السماوية ومحفوظاً بحفظ الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

المطلب الثاني

منهج التحليل والنقد عند ابن القيم في مصداقية الأناجيل

عرضنا فيما سبق لظروف كتابة الأناجيل وبينا أن النصارى يؤمنون بأن هذه الأناجيل وما ألحق بها من رسائل إنما هي كتاباً سماوياً مقدساً، وأن المؤلفين الذين كتبوها إنما كتبوها بالإلهام مؤيَّدين بروح القدس.

ويعتقد النصارى أنه ليس لأحد الحق في أن يشكك في هذه الأناجيل أو أن يقلل من شأنها، أو أن يحط من قدرها لأن الذين كتبوها -على حد زعمهم- هم رسل ملهمون بوحي من الله، ومن لم يكن منهم رسولاً فإنه كان تلميذاً لرسول.

كما أن الكنيسة وعامة النصارى قديماً وحديثاً يؤكدون دائماً صحة وصدق كل كلمة في الأناجيل لأنها -كما يدعون- صادرة عن رسل ملهمين.

وإن الذين يشككون في صدق هذه الأناجيل، هم -في رأي النصارى- بعيدون عن الحق مجانبون للصواب.

---

(١) الحاج، د. محمّد أحمد «النصرانية من التوحيد إلى التثليث» ص١٥٦.

لكن القارئ للإنجيل كثيراً ما يصادف جملاً غير مفهومة، ونصوصاً متناقضة مع بعضها البعض، بل قد يجد القارئ نصوصاً عبثية فاضحة يمجها العقل والقلب والضمير، فماذا يفعل القارئ تجاه هذه الجمل وتلك النصوص، وكيف يقبل عاقل بنصوص متناقضة ومضطربة، ويسلم بها دون مناقشة وتحليل لبيان مصداقيتها؟ إن الحقيقة التي اعترف بها كثير من علماء النصارى -قبل المسلمين- أن هذه الأناجيل فيها من التضارب والأخطاء والزيادة والنقص مما لا يجدي معه إقناع عاقل.

ولكي نكون منصفين فيما ذكرناه ندلل على ذلك بأقوال بعض النصارى والمسلمين وممن أسلم:

• يقول ول ديورانت: «أن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر وأن فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحتها، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنها وضعت عن قصد لإثبات وقوع كثير من النبوءات الواردة في العهد القديم، ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تتعرض له ذاكرة الآدميين من ضعف وعيوب ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح...وإن المبشرين بالإنجيل رغم ما يتصفون به من تحيز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة ليسجلون كثيراً من الحادثات التي يعمد المخترعون الملفقون إلى إخفائها»(١).

ويقول شارل جيني بير: «وتصفح الأناجيل وحده يكفي لإقناعنا بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى تركيبات واضحة التعارض لنفس الأحداث والأحاديث مما يحتم معه القول بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً يفرض تسلسل حوادثه عليهم، بل على العكس من ذلك، اتبع كل هواه وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلفه»(٢).

---

(١) ول ديورانت «قصة الحضارة» ١١/ ٢١٠.

(٢) جيني بير، شارل، «المسيحية نشأتها وتطورها» (ص٢٦-٢٩).

ويقول عبدالله الترجمان -وهو أحد العلماء الذين أسلموا-: «اعلموا رحمكم الله أن الذين كتبوا الأناجيل اختلفوا في أشياء كثيرة، وذلك دليل على كذبهم، فلو كانوا على الحق ما اختلفوا في شيء» وقد استدل على ما قال بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ [النساء: ٨٢]. وتابع القول: «فجعل الاختلاف دليل الكذب على الله؛ لأن كل ما هو من عند الله تعالى لا يختلف معانيه، ولا تضطرب مبانيه، وكل ما كذبه الكاذبون عليه لا بد وأن يفضحهم لوجود الاختلاف والاضطراب فيما كذبوه ﴿لِيَمِيزَ الله الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧]»[١].

وقد استدل الترجمان بنصوص من أناجيلهم تبين كذبهم[٢].

يقول الإمام محمّد أبوزهرة: «وهذه الأناجيل الأربعة لم يُمْلها المسيح ولم تنزل عليه هو بوحي إلهي، ولكنها كتبت من بعده»[٣].

ولكي نؤكد ما ذهب إليه هؤلاء العلماء نعرض نصوصاً من ذات أناجيلهم تبين لنا اضطراب وتناقض هذه الأناجيل، ونكتفي للتدليل على ذلك بما عرضه لنا الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله.

وابن القيم عند تناوله لهذه القضية لم يكن بدعاً من العلماء الذين قالوا بعدم صدق وصحة هذه الأناجيل، وتراه رحمه الله يقول: «ومن المعلوم أن نسخ التوراة والإنجيل إنما هي عند رؤساء اليهود والنصارى وليست عند عامتهم، ولا يحفظونها في صدورهم كحفظ المسلمين القرآن، ولا يمتنع على الجماعة القليلة التواطؤ على تغيير بعض النسخ ولا سيما إذا كان بقيتهم لا يحفظونها، فإذا قصد طائفة منهم تغيير نسخة أو نسخ عندهم أمكن ذلك، وهذا وقع في العالم كثيراً»[٤].

---

(١) أما كلام الترجمان فمن كتابه «تحفة الأريب» (ص٢٠٤).

(٢) يستطيع القارئ أن يرجع إلى ما استدل به عبدالله الترجمان وذلك في كتابه: «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» (ص٢٠٥) وما بعدها.

(٣) أبو زهرة، الإمام محمّد، «محاضرات في النصرانية» (ص٣٨).

(٤) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٣٠) تحقيق د. الحاج.

وقد أقدم ابن القيم رحمه الله على بيان تناقض نسخ أناجيلهم وإثبات التحريف فيها من خلال منهج التحليل والمقارنة والنقد لهذه النصوص، وإن مما استدل به رحمه الله على عدم مصداقية هذه الأناجيل آيات القرآن الكريم، حيث ذكر إخبار القرآن الكريم بما وقع من النصارى من تبديلهم للنصوص وكذبهم على الله تعالى ومن ذلك تلفيق الكثير من القصص وإثباتها في الإنجيل مثل: قصة صلب المسيح وإقرارهم لها، في حين يشهد القرآن على كذبهم وبهتهم فيما زعموا، وقد نقل ابن القيم قول الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَل رَّفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:١٥٦-١٥٨][(١)].

ويثبت ابن القيم ما ذهب إليه من وقوع التناقض والاختلاف بين نسخ أناجيلهم بما أورده من نصوص أناجيلهم وذلك بعد قوله عن الإنجيل الذي بأيدي النصارى أنه: «أربعة كتب مختلفة من تأليف أربعة رجال: يوحنا ومتى ومرقس ولوقا»[(٢)] ثم يبين رحمه الله كذب هؤلاء الأربعة بما ساقه من شواهد ثم مقارنتها مع بعضها ليثبت تناقضها حيث يذكر أن كلاً من هؤلاء الأربعة يزيد وينقص، ويخالف إنجيله إنجيل أصحابه في أشياء، وفيها ذكر القول ونقيضه ومن ذلك ما جاء في إنجيل يوحنا: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي غير مقبولة، ولكن غيري يشهد لي»[(٣)]. وفي موضع آخر من إنجيل يوحنا قوله: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني لا أعلم من أين جئت وإلى أين أذهب»[(٤)].

هذه إحدى صور المقارنة بين النصوص التي ساقها ابن القيم ليثبت تناقضها

---

(١) ذكرها ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٥٣٩).

(٢) ابن القيم، «هداية الحيارى» (ص٤١٦).

(٣) الإنجيل، يوحنا (٣/ ٣٢) وأورده ابن القيم في «هداية الحيارى» (ص٤٢٧).

(٤) الإنجيل، يوحنا (٨/ ١٤).

والمطّلع على هذين النصين يلاحظ جيداً كيف وقع التناقض مما يؤكد عدم صدق الأناجيل ومثال آخر: ما ذكره ابن القيم من أن عيسى عليه السلام لما استشعر بوثوب اليهود عليه قال: -على حد زعمهم- «جزعت نفسي الآن فماذا أقول يا أبتاه سلمني من هذا الوقت»[1] وفي موضع آخر أنه لما رفع على خشبة الصليب -كما يدعون- صاح صياحاً عظيماً وقال: «يا إلهي لم أسلمتني»[2]. وهنا يتساءل ابن القيم محللاً ومفنداً هذه النصوص بقوله: «فكيف يجمع هذا مع قولكم إنه هو الذي أسلم نفسه إلى اليهود ليصلبوه ويقتلوه رحمة منه بعباده، حتى فداهم بنفسه من الخطايا، وأخرج بذلك آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وجميع الأنبياء من جهنم بالحيلة التي دبرها على إبليس، يجزع إله العالم بذلك. وكيف يسأل السلامة منه، وهو الذي اختاره ورضيه، وكيف يشتد صياحه ويقول: (يا إلهي لم أسلمتني) وهو الذي أسلم نفسه، وكيف لم يخلصه أبوه مع قدرته على تخليصه، وإنزاله صاعقة على الصليب وأهله، أم كان رباً عاجزاً مقهوراً مع اليهود»؟!![3].

ومثال آخر: يثبت فيه ابن القيم بطريق المقارنة تناقض الأناجيل ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى، قوله: «لا تحسبوا أني قدمت لأصلح بين أهل الأرض لم آت لصلاحهم لكن لألقي المحاربة بينهم، وقدمت لأفرّق بين المرء وابنه والبنت وأمها حتى يصير أعداء المرء أهل بيته»[4] يقول ابن القيم «ثم فيه أيضاً» -أي في نفس إنجيل متى-: «إنما قدمت لتحيوا وتزدادوا خيراً، وأصلح بين الناس»[5] وأنه قال:

---

(١) الإنجيل، متى (٢٦/ ٣٨-٣٩) مع اختلاف في النص فالذي وقفنا عليه هو «فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت... وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن إمكن فلتعبر عني هذه الكأس».

(٢) النص في إنجيل متى «صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: «إيلي إيلي لما شبقتني أي إلهي إلهي لم تركتني» متى (٢٧/ ٤٦).

(٣) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٢٧) تحقيق د. الحاج.

(٤) الإنجيل، متى (١٠/ ٣٤-٣٦).

(٥) الإنجيل، يوحنا (٥/ ٤٠) والنص: «.... ولا تريدون أن تأتوا إلي لتكون لكم حياة».

«من لطم خدك الأيمن فانصب له الأخرى»[1] وفيه أيضاً أنه قال: «طوبى لك يا شمعون رأس الجماعة وأنا أقول أنك الحجر وعلى هذا الحجر تبني بيعتي، وكل ما أطلته في الأرض يكون محللاً في السماء، وما عقدته على الأرض يكون معقوداً في السماء»[2] يقول ابن القيم ثم فيه بعد أسطر يقول له: «اذهب عني يا شيطان ولا تعارض، فإنك جاهل»[3] ويفند ابن القيم هذه النصوص قائلاً: «فكيف يكون شيطان جاهل مطاع في السموات»، وفي الإنجيل نص: أنه «لم تلد النساء مثل يحيى»[4].

ومثال آخر: يورده ابن القيم ليثبت فيه التناقض والاضطراب حيث يقول: «ومن العجب أن في إنجيل متى نسبة المسيح إلى أنه ابن يوسف النجار ثم إلى إبراهيم الخليل تسعة وثلاثين أباً[5] ثم نسبه لوقا أيضاً في إنجيله إلى يوسف وعد منه إلى إبراهيم نيفاً وخمسين أباً[6] فبينما هو إله تام إذا به ابن الإله ثم جعلوه بن يوسف النجار»[7].

وبعد هذه الأدلة والشواهد التي ساقها ابن القيم في إثبات عدم صدق الأناجيل يعقب موضحاً أن هدفه من هذه الشواهد هو إثبات عدم كونها من عند الله سبحانه وتعالى حيث يقول: «والمقصود أن الاضطراب في الإنجيل يشهد بأن التغيير وقع فيه قطعاً، ولا يمكن أن يكون ذلك من عند الله بل الاختلاف الكثير الذي فيه يدل على أن ذلك الاختلاف من عند غير الله»[8].

---

(١) الإنجيل: متى (٥/ ٣٩) والنص: «من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر».

(٢) الإنجيل: متى (١٦/ ١٧-١٨) وقد استبدل في النص الحالي الحجر بالصخر، والبيعة بالكنيسة.

(٣) والنص الذي بين أيدينا هو «فالتفت وقال لبطرس: ابتعد عني يا شيطان أنت عقبة في طريقي لأن أفكارك هذه أفكار البشر لا أفكار الله» متى (١٦/ ٢٣).

(٤) الإنجيل، متى (١١/ ١١).

(٥) الإنجيل، متى (١/ ١-١٧).

(٦) الإنجيل، لوقا (٣/ ٢٣-٣٨).

(٧) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٢٩) تحقيق د. الحاج.

(٨) ابن القيم «هداية الحيارى» (ص٤٢٩) تحقيق د. الحاج.

هذا موقف ابن القيم من الأناجيل وتلك كانت طريقته في الوصول إلى النتيجة الأخيرة التي توصل إليها بعد ذكر أدلته والتي أثبت عدم صدق الأناجيل بدليل وقوع تلك الاضطرابات والاختلافات والتي تجزم وتقطع بلا شك أنها ليست من عند الله.

موقف الباحث:

لا شك أن المطلع على هذه الأناجيل يؤمن بأنها مملوءة بالنصوص العبثية وغير المقبولة وأنه قد خالطها التناقض والاضطراب وأن معظمها غير صحيح إلا أنني أجد ومعي كل المسلمين أن الموقف مع حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه البخاري في صحيحه بسنده المتصل عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد»[(١)].

فيا أهل الكتاب: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥،١٦]. فهلا خرجتم من ظلماتكم إلى نور الإسلام؟!

وهلا توقفتم عن دعوة الناس إلى أناجيلكم بعد أن ثبت وقوع التحريف والاضطراب والتناقض فيها، واتبعتم نور الله وكتابه المبين؟؟

فيا أهل الكتاب: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ﴾ [المائدة:٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

---

(١) البخاري، محمّد بن إسماعيل «صحيح البخاري».